أسرار الانقلاب العثماني

كتبه بالتركية
مصطفى طوران

ترجمه
كمال خوجة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧م
الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م
الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م
الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ٢٣٧٧٥١
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد .

فمن المعلوم يقيناً لدى أهل الوعي والبصيرة أن أعداء الإسلام من يهوديّة ماكرة ، وصليبيّة حاقدة ، وشيوعية ملحدة متغطرسة ، واستعمارية لئيمة متسلّطة .. لما وجدوا في الإسلام مبادىء تتميز بالربانية والعالمية ، وتتصف بالخلود والتجدد .. وتحمل في طبيعتها خصائص شمولها ونموّها وامتدادها ..

ولما وجدوا في المسلمين قوة لا تقهر ، وعزيمة لا تلين ، وجهاداً لا ينقطع ، وفتوحاً لا يتوقف .. ولما وجدوا الخلافة الإسلامية تجمع المسلمين تحت قيادة واحدة وتجعلهم أمة واحدة ، وتدفعهم نحو غاية واحدة .. لما وجدوا هذا كله جمعوا جموعهم ، وأحكموا أمرهم ، ووضعوا مخططاتهم ، وعقدوا

مؤتمراتهم ، واتخذوا مقرراتهم .. لأجل أن يضربوا المسلمين ضربة قاصمة ، تتمزق بعدها وحدتهم ، ويتهدّم كيانهم ، ويفقدون في العالمين عزتهم وكرامتهم ، ويتقلص في الأرض ظلهم وامتدادهم ..

وقد التقت اليهودية والاستعمارية والصليبية في صفّ واحد ، لتكون الضربة للمسلمين أقوى ، والتهديم لكيانهم أعظم .. وقد اختاروا لتنفيذ هذه المهمة في حرب الإسلام والمسلمين عميلهم الخائن ، وربيبهم المجرم اليهودي « كمال أتاتورك » ، وساعده في هذه المهمة الإجرامية « عصمت إينونو » ، وأعضاء جمعية الترقي .. فهم الذين قاموا على تنفيذ هذه الجريمة النكراء ، وهم الذين فرضوا على مجلس الأمة التركي عام (١٩٢٤) اتخاذ القرار بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وإعلان علمانية الدولة ، وإبعاد التشريع الإسلامي عن واقع الحياة ، وذلك بإلغاء المحاكم الشرعية . والمدارس الدينية ، والأوقاف ، وأحكام الميراث ، وجعل الأذان باللغة التركية ، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ، وعطلة يوم الجمعة بالأحد ، وتغيير الأزياء الإسلامية بالقبعة الأجنبية

واللباس الإفرنجي .. وانتهى ذلك كله عام (١٩٢٨) م .

وعلى أعقاب هذه التغييرات الجذرية اعترف الإنكليز ودول الحلفاء باستقلال تركيا ، وباركوا جهود أتاتورك في إلغاء الخلافة ، وعلْمنة الدولة ، ومحاربة الإسلام .. وكان من نتيجة إلغاء الخلافة أن انقسمت البلاد الإسلامية إلى دويلات ، وحلّ عليها الضعف والوهن ، وأصبحت ألعوبة بيد الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا .. واستطاعت الماسونية العالمية التي تديرها اليهودية أن تلعب دوراً كبيراً في اجتذاب أصحاب الغنى والنفوذ والجاه .. فاصطنعت منهم حكاماً عملاء يأتمرون بأمرها ، وينفذون مخططاتها بأساليب متنوعة ، وشعارات مطروحة متجددة باسم الوطنية حيناً ، وباسم التقدمية أحياناً ، وباسم القومية تارة ، وباسم الاشتراكية تارة أخرى .. إلى غير ذلك من هذه الشعارات التي ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب ، والتي تستهدف تحويل الجيل المسلم نحو الإلحاد والإباحية .

وقد تضافرت في هذا العصر قوى خارجية وداخلية ..

عالمية ومحلية .. شيوعية ورأسمالية .. يهودية واستعمارية .. تعمل ليل نهار لأجل هدف واحد ، وغاية واحدة ألا وهي هدم العقيدة الإسلامية من النفوس ، وطمس معالم الإسلام من الأرض .. وتنفيذ مخططات اليهودية التي تتجسد في الشعار المثبت على واجهة البرلمان الإسرائيلي : « حدودك ياإسرائيل من الفرات إلى النيل » .

وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ .

فحريّ بالمسلم أن يكون على اطلاع تام على كل مؤامرة حاكها الأعداء في الظلام للتشكيك بصلاحية الإسلام ، وتمزيق وحدة المسلمين ، واستئصال تحرّكهم في كل مكان ..

وإن من ثمرات هذا الاطلاع .. كشف هذه المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لطمس معالم الإسلام ، وتحويل الجيل المؤمن إلى جيل منحل مائع ملحد لا ينهض بواجب ، ولا يسعى إلى غاية . ولا يضطلع بمسؤولية .

وإن من ثمراته كذلك السعي الدائم لإحباط هذه المؤامرات ، وإظهارها للناس ، وفضح كل خطة ينتهجها أعداء الله للنيل من شريعة الإسلام ، وزعزعة عقيدة المسلمين ..

وإن من ثمراته أيضاً استنهاض الهمم المتينة ، واستثارة العزائم القوية .. لاستعادة مجد الإسلام والمسلمين تحت لواء الخلافة الراشدة ، وتحت راية المبادىء الإسلامية الهادية .. وما ذلك على الله بعزيز .

وإن كتاب « أسرار الانقلاب العثماني » لمؤلفه « مصطفى طوران » هو من جملة الكتب التي تكشف لجيلنا المؤمن عن مؤامرات اليهود والحلفاء والعملاء بالتآمر على السلطان عبد الحميد الخليفة المظلوم .. بالإطاحة بالخلافة العثمانية ، وبإقامة دولة إسرائيل في حمى مهد عيسى ، ومسرى محمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم .

وختاماً أُهيب بجيلنا المسلم أن ينهلوا دائماً من معين الثقافة الإسلامية ، وأن يحيطوا بمؤامرات أعداء الإسلام .. حتى إذا

استوعبوها ، وأحاطوا بها ، وعرفوا حقيقتها .. نهضوا بـالإسلام بناءً وتشييداً ، ونـادوا بمبـادئـه منهـاجـاً وتحكيمـاً ، وحملوا لواء الدعوة الإسلاميـة عزمـاً وتصميمـاً .. وعـادوا خير أمـة أخرجت للناس ..

سدّد الله الخُطا ، وأكثر من العاملين المخلصين .. وهيّأ لأمة الإسلام من يقودها إلى العز والنصر إنه أكرم مأمول وبالإجابة جدير .

المقدم

عبد الله ناصح علوان

بسم الله الرحمن الرحيم

واقعــة ٣١ من (آذار) يــوم دامٍ في العهــد النيــابي للإمبراطورية العثمانية سببته سلسلة من المؤامرات السياسية . حـول هـذه المـأسـاة التي بـدأت في ثكنـة (طـاش قشلـة) العسكرية وانتهت بـإزالـة السلطـان عبـد الحميـد عن عرشـه ، أُلفت كتب كثيرة . إلا أنـه من المؤكـد كـونهـا مبتـورة أو مختلقة . فهذه الكتب التي كانت حصيلة اقتناعات أو تفسيرات ابتدعها مؤلفوها بوحي من المؤثرات السياسية المعـاصرة ليست من الحقيقـة في شيء . لأن مفتعلي هـذه الحـوادث ومـدبريهـا أخفوا حقائق المأساة وأسرارها لـدرجـة أننـا عشنـا حوادثها في الثكنـة التي بـدأت فيهـا من أولهـا حتى آخرهـا فلم نتمكن من معرفة أسبابها الحقيقيـة أو حتى الإحسـاس بهـا . مجزرة ٣١ من آذار التي يحاول بعضهم الإيهام بأنها محـاولـة لإحيـاء الاستبـداد والإحاطة بالعهد النيـابي وبـالحريـة ، هي في الحقيقـة مؤامرة دبرها الأعداء لهدم الخلافة العثمـانيـة وتمزيقهـا ، مجزرة ٣١ من آذار التي طواهـا التـاريـخ أعجـزت المـؤرخين عن إصـدار حكم

قاطع بشأنها . والسبب في هـذا هو تعمـد مـدبري المؤامرة قتل شهود الحوادث أو إعدامهم .

هذه الحادثة التي دبرها أعـداؤنـا بشكل دقيق ومنظم مرت بعدة أطوار سياسية حتى دخلت ثكنة طاش قشلة .

وإنه لمن دواعي الأسى والأسف أن يـذهب عـدد كبير من الأتراك ضحية هذا الغدر والخسة والدناءة .

لقد وضعت بذرة ٣١ من آذار في القرن الخـامس عشر حتى انتشت . إنهـا مـأسـاة دمـويـة مرت بسلسلـة من المراحـل عبر التاريخ حتى تعاظمت ونجح أعداؤنـا في الاقتحـام بهـا الثكنـة العسكريـة حتى ينتقمـوا منـا . إنهـا لا تشبـه تمرد خليـل الأرناؤوطي عام ١٧٣٠ ولا تمرد مصطفى قباقجي عام ١٨٠٧ ، فهذه حوادث جرت لأسباب محلية .

مجزرة ٣١ من آذار دبرها أعداؤنا بالعرق والمال ، استهـدفوا بها تمزيق الإمبراطورية العثمانيـة وهـدم الخلافـة ، وأخرجوهـا على المسرح بشكل تمرد عسكري . ولقـد خـدع القـائمـون على الجهـاز الإداري للـدولـة بهؤلاء الأشرار ، وأخيراً فهمـوا خطـأهم

ولكن بعد فوات الأوان ، مع كل هذا فقد حجبت الحقيقة بستار من الضباب وغيبت في مجاهل التاريخ .

إن النوافذ التي فتحوها باسم الحرية قد أغرقت الناس في الظلام . وأول هدية من الذين ادعوا أنهم سيخرجون الناس من الحكم المطلق إلى الحكم النيابي ومن الاستبداد إلى الحرية ، كانت نصب أعواد المشانق في ساحات استانبول . وكانت الوسيلة إلى ذلك فاجعة ٣١ من آذار التي تقدم فيها أدعياء الحرية بأكبر خدمة للأعداء .

أنا أحد الشاهدين اللذين بقيا على قيد الحياة بعد أن عاشا الحادثة في مكان وقوعها بثكنة طاش قشلة وذاقا من الآلام مالم يذقه أو يتحمله أي إنسان على وجه الأرض .

وكما هي الحال في سائر منعطفات القدر فإن الجيش البائس هو الذي تورط في هذه الحادثة .

يدعي البعض أن وقعة ٣١ من آذار هي من تدبير السلطان عبد الحميد وبعضهم يدعي أنها من صنع الاتحاديين وغيرهم يقول إنها مؤامرة حاكها مشايخ جمعية الاتحاد المحمدي

بقيادة (درويش وحـدت) . فمن المفيـد أن نستعرض تـاريخ نواة هذه الحادثة باختصار .

في القرن الخامس عشر ، أهدى تتـار بلاد القرم السلطـان سليمان القانوني فتاة يهودية روسيـة اسمهـا (روكزيلان) كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم . ولشدة جمالها افتتن بهـا القـانوني فاتخذها زوجة له وسماها (خُرَّم سلطان) ، وبفضل نفوذها في القصر زوجت ابنتها مهرماه من اللقيط الكرواتي رستم بـاشـا ، وتمكنت من قتـل الصـدر الأعظم (رئيس الـوزراء) إبراهيم باشا ، ونصب صهرها رستم بـاشـا مكانـه . ولم تكتف بهـذا بل دبرت مـؤامرة استطـاعت فيهـا خنـق ولي العهـد مصطفى بن سليمان القانوني من زوجته الأولى على أيدي الجلادين بحجة أنه يفكر في مؤامرة للإطاحـة بوالـده ، ونصَّبت ابنهـا سليماً وليـاً للعهد .

هذه الحوادث مذكورة في كتب التاريخ ، وكانت في عهـد تعرَّض فيه اليهود في روسيـا للظلم وفي إسبـانيـا للقتل والحرق والتشريد . وعندما حصلت خرم سلطان على إذن من سليمـان

القانوني في السماح لليهود باللجوء إلى البلاد بدأ اليهود بالهجرة أفواجاً ، واستمرت هذه الهجرة حتى الإعلان الدستوري .

منذ آلاف السنين ، تعرضت فلسطين لغزوات أمم مختلفة ، حيث طرد قوم النبي موسى منها ، ثم إنهم لم يتمكنوا بعد ذلك من الاستقرار على أرض لغدرهم وشؤمهم لذا فإنهم انتشروا في أنحاء المعمورة .

هؤلاء القوم الذين استغلوا كل شيء حتى أسماء أنبيائهم ، جربوا كل الخدع والمؤامرات السياسية لاسترجاع فلسطين التي فقدوها على مدى التاريخ .

اليهود الذين انتشروا في كافة الأقطار العثمانية وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات المعطاة لهم وتحينوا الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد ، وأعفوا من الخدمة العسكرية ، وأسسوا مدارس وروابط خاصة بهم ، وحصلوا على جميع الامتيازات . كل هذا وأكبر عدو لهم هم الأتراك . لأن فلسطين يحكمها الأتراك . هؤلاء اليهود لم تحسن

الحميد ، مع أنهم عاشوا أرغد عيش في عهده .

في البلاد العربية ، في بيروت ، في سلانيك ، في بلاد الروم ، في بلاد الأناضول ، في الجزر ، كانوا هم السماسرة والأغنياء ، عاشوا حياة مترفة ومريحة في الممالك العثمانية وأكبر أعدائهم هم الأتراك وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد .

في أواخر القرن التاسع عشر ونتيجة لسوء الإدارة الذي خلفته عصور الانحطاط ، ضعفت الإمبراطورية العثمانية وأصبحت تحت وطأة سلسلة من الامتيازات الأجنبية .

فكرت الدول الاستعمارية في الاستفادة من هذا الوضع ، فاجتمعت في ريفالد على ساحل بحر البلطيق . وتسربت أنباء لقاء ريفالد الذي استهدف تمزيق الإمبراطورية العثمانية .

كان اجتماعاً سياسياً ضم ملك الإمبراطورية البريطانية إدوارد السابع وابن خالته ملك روسيا نيقولا الثاني وإمبراطور ألمانيا كايزر ويلهلم ، وإمبراطور النمسا والمجر فرانسوا جوزيف وملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل .

ولم يمض وقت طويل حتى عقد مؤتمر الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧ في مدينة (بازل) بسويسرا . واشترك فيه (٢٠٤) من الأعضاء . وبعد مناقشات طويلة توصلوا إلى قرار حول تأمين وطن ليهود العالم .

تقرر في البداية أن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندة . إلا أن أحد كبار أعضاء المؤتمر وهو (تيودور هرتزل) أصر على أن يكون هذا الوطن في فلسطين ،وعرض فكرته على التصويت فكانت الأكثرية لصالحه ، ثم اتخذ القرار التالي :

ضرورة نجاح هذه القضية ولو اقتضت صرف الملايين ، وقد أعطيت الصلاحية المطلقة لتيودور هرتزل لقاء تعهده بالوصول إلى الغاية المرجوة مع تحمل كافة المسؤوليات المترتبة عليها .

ربح بارون هيرس أحد أغنياء اليهود ثروة طائلة من الخطوط الحديدية العثمانية عام ١٩٠٥ . ثم توفي بعد أن أوصى بمئتين وخمسين مليوناً من الفرنكات لصرفها في سبيل تأمين

وطن ليهود العالم . في هـذه الفترة كان يهود روسيـا يتعرضون للظلم فيهـاجرون إلى تركيـا حتى تمكن بعضهم من الوصول إلى فلسطين .

وفي عـام ١٨٩٨ وصـل إمبراطـور ألمـانيـا ويلهم الثـاني إلى إستانبول بـدعوة من السلطـان عبـد الحميـد . فـاستغل تيودور هرتـزل هـذه الفرصـة واتجـه إلى إستـانبـول إلا أن زيـارة الإمبراطـور لإستـانبـول كانت قـد انتهت وبـدأت زيـارتـه للقدس ، فلحقه هرتزل إلى هناك . وتمكن بعـد توسـط رئيس الوزراء الألمـاني فون بـولـوف من مقـابلـة الإمبراطـور وطلب مساعدته في هجرة يهود العالم إلى فلسطين .

أبلغ الإمبراطور أنه يمكنه المساعدة بشرط عدم المساس بحق حكم السلطان العثماني .

وعاد هرتزل إلى إستـانبول يحـدوه الأمل الكبير وتمكن هو والحاخام اليهودي موشيـه ليفي بتوسـط السفـارة الألمـانيـة من الذهاب إلى قصر يلدز ومقابلة السلطان عبـد الحميـد . وتقـدم تيودور هرتزل إلى السلطان بالرشوة قائلاً :

« مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان ، لقد وكَّلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل والرجاء ، عبيدكم المخلصون اليهود يقبلون التراب الذي تدوسونه ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة .

ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية » .

وكان السلطان قد أحيط علماً مسبقاً بقرار المؤتمر العالمي للصهيونية في سويسرا ، وعلى علم بوصول المهاجرين اليهود من روسيا ، لذا كان يفهم ما يقصده الوفد اليهودي من هديته . وبعد أن استمع إلى هذا العرض بكل هدوء أمر مرافقه أن يطردهم من القصر وأصدر على الفور أمراً يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين .

ناصبوا السلطان العداء ، لأنهم لم يحصلوا على الامتياز الذي طلبوه منه فأجمعوا أمرهم وعقدوا مؤتمراً آخر واتخذوا قراراً بالوصول إلى الهدف عن طريق خلع السلطان عبد الحميد بالوسائل السياسية . وكانت أول محاولة لهم مع المنظمات

السرية الأرمنية . وكان إدوارد السابع على علاقات قوية مع اليهود وبعد أن أصبح ملكاً على التاج البريطاني انتسب إلى المحفل الماسوني بتوجيه من غوستاف الخامس ملك السويد . وعهد إدوارد السابع هذا كان عهداً ذهبياً ليهود العالم ، ساعدهم على تسربهم إلى فلسطين وبذلك وجدوا فرصة للاستيلاء عليها .

قدَّم كارل إدوارد مبلغ ١٣ ألف ليرة ذهبية للمنظمات السرية الأرمنية لإلقاء قنبلة على قصر يلدز وقتل السلطان عبد الحميد . وفتح اعتمادات في البنوك الأجنبية لخدمة الأهداف الصهيونية . لذا فإن أول عمل قامت به المنظمات الأرمنية هو الهجوم على الباب العالي (دار الحكومة) ، وهجم فريق آخر على البنك العثماني ، وألقوا القنابل ليثيروا الرعاع . وعلى الفور أمر الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) سعيد باشا بمحاصرة البنك . وقبض رجال الدرك على الأرمن المهاجمين في الباب العالي . وتمكن عمال الموانىء من إعمال القتل فيهم بالأحجار والعصي . واستعمل الأرمن الذين احتموا بكنيسة ، مختلف أنواع المسدسات والقنابل وبعد اشتباكات مع الجيش

استسلموا . وقد تدخل السفير الروسي في الأمر وادعى بأن المقبوض عليهم هم من الجنسية الروسية وطلب السماح لهم بمغادرة البلاد على متن باخرة روسية . وافقت السلطات العثمانية على هذا الطلب تحت وطأة امتيازات الأجانب ، ثم إن الأرمن لم يصرفوا نظرهم عن العمل الذي بدؤوه ، فكان هدفهم هو القضاء على عبد الحميد .

موّل اليهود هؤلاء الأرمن ودفعوهم إلى الإمام . فكانت المؤامرة هذه المرة أشد إحكاماً وأقوى تدبيراً . الخطة أعدها اليهود في سويسرا ، وكلف بالأمر إدوارد جورس وهو يهودي مجري ، فرنسي الجنسية تدرب في روسيا على أعمال الاغتيال . بدأ إدوارد نشاطه بالتعاون مع منظمة الطاشناق الأرمنية . ولكي تنجح المؤامرة لابد من قتل السلطان . وبموجب الخطة التي أعدوها ، استطاعوا إدخال عربة إلى البلاد صنعت خصيصاً ، ووصلت إلى إستانبول قطعة بعد قطعة . ثم ركب على بعضها . وقد تبين من التحقيقات التي أجريت فيما بعد أن القطع دخلت إلى البلاد دون تفتيش من رجال الجمارك الذين قبضوا ثمناً لها . صممت قنبلة موقوتة (قنبلة الجحيم)

ووضعت تحت كرسي القيادة في القسم الخشبي منه لتنفجر في الوقت الذي يأتي فيه السلطان عبد الحميد لصلاة الجمعة . وكان مقرراً أن تترك العربة قرب الطريق الذي يمر منه السلطان ، تركوها ، وعُرف عن السلطان تقيده بالنظام والمواعيد في حياته الرسمية والخاصة ، حيث تجري مراسيم الجمعة في الوقت المحدد على الضبط . وقبل أداء التحية يجري عرض عسكري . والمسافة بين باب القصر والمسجد لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار . وقبالة باب المسجد الخارجي مبنى يقف على شرفاته السفراء وزوجاتهم وكبار الوزراء المدعوين لحضور المراسيم .

تعطى إيعازات للجنود المصفوفين على جانبي الطريق لتركيب الحربة وأداء التحية ، ثم يعلن البوق من عند باب القصر مجيء السلطان . وعندما تظهر عربة السلطان التي تجر بأربعة خيول تعزف الموسيقى السلام الحميدي . ثم تعقبها موسيقى التحية وبعدها يدوي صوت (بادشاهم جوق باشا) « عاش مولانا السلطان » .

هذا الاحتفال يحضره رجال الدولة . ولا يسمح بدخول

المسجد لصلاة الجمعة مع السلطان إلا للذين حصلوا على إذن مسبق . والبوليس السري والشرطة المدنية ينتشرون في كل مكان .

وكما هو معتاد وصل السلطان بنفس المراسم إلى المسجد في هذا اليوم الجمعة ٢١ من تموز ١٩٠٥ .

نزل من العربة ودخل المسجد وسط تكبير الحاضرين كان يصلي في السدة المحاطة بالشبك . ولا يوجد على جانبي السدة إلا المرافقون والحراس . وبعد الانتهاء من الصلاة والدعاء نزل السلطان من السدرج ووصل إلى المكان الذي يمتطي فيه عربته . وأراد أن يجامل شيخ الإسلام جمال الدين أفندي ، فأمضى بضع دقائق مع الشيخ . في حين كانت ساحة المسجد مملوءة بقادة الجيش ونوابهم والشرطة السرية . في هذا الوقت بالضبط انفجرت القنبلة محدثة دوياً هائلاً . وطارت قطع من الخيول والعربة والأيدي والأرجل البشرية في الهواء وخيم على المنطقة دخان كثيف ، وتحطم زجاج نوافذ المسجد ، وقد أذهل الصوت رجال الجيش والشرطة فهرب من بقي منهم على

قيد الحياة ، وبعد مدة عاد بعضهم فهنأ السلطـان على سلامتـه فأمرهم بتهيئة عربته ، ومحاصرة المنطقة واعتقـال المتسببين . ثم ركب عربته بمفرده ودخل بها إلى القصر . قتل في هذه الحادثة عـدد كبير من الجنـود ولم يُتعرف على أشكالهم بسبب تمـزقهـا . وقد اعتقل كثيرون إلا أن أكثر المتآمرين الكبـار كانوا خـارج البلاد . شكلت لجنـة تحقيق برئـاسـة نجيب ملحم حيث تولت هذه القضيـة وتوصلت بعـد وقت قصير إلى الإحـاطـة بـأبعـاد المـؤامرة ، وعرفت الفـاعلين وألقت القبض على كريستـوفر ميكائيليان وابنته روبينـا وقسطنطين قيوليـان وكان قيوليـان هذا يهودياً روسياً . استطاع وهو في السجن أن يقطع شرايينه بطرف الأبريق المعدني في المرحاض وينتحر .

قامت المخابرات التركيـة الخـاصـة بإجراء تحريـات واسعـة استطاعت الحصول على نشرة لها أهمية بالغة كانت هـذه النشرة تحوي ٢٢ مادة من دستور منظمة الصهيونية العـالميـة . وكانت النتيجة الحقيقة التالية :

منذ سنة ١٨٩٢ والعالم في صراع مع اليهود الذين تبنوا هذا

الدستور وحوادث ٣١ من آذار دبرها اليهود . هؤلاء اليهود وإن قضي عليهم فإن صراعاً سيأخذ وضعاً مستمراً بين بني إسرائيل والعالم العربي . لذا فإن بذور حرب عالمية ثالثة بين روسيا التي تحاول التمسك بالعالم العربي والمحور الإنكلو أمريكي الذي يؤيد إسرائيل ، مدفونة في الشرق الأوسط .

ليس هناك أدنى شك في أن عبد الحميد أحس بهذه النوايا وعرف بأن دولة إسرائيل ستقوم إلا أنه أراد ألا يكون هو الوسيلة إلى ذلك كان يعلم تعاون اليهود مع الماسونية ، ويخشى كثيراً من أن تلجأ عناصر غير تركية إلى تمزيق الإمبراطورية . لذا فإنه قرَّب الأرناؤوط والأكراد والشركس إلى القصر وأسند إليهم المناصب حتى إن بعض العسكريين من هؤلاء ترقوا في مناصبهم إلى أعلى درجات (مشير) .

وكان يشتبه في أمر الأرمن واليهود خاصة . ويعتقد بأنهم سيقومون عاجلاً أو آجلاً بأعمال هدامة . ومهما قيل عن استبداد عبد الحميد ، فإنه كان عالماً بما يجري حوله ، ناظراً إلى المستقبل متحاشياً الحروب مقتنعاً أن كل شيء يمكن حله

بالوسائل السلمية . شاغلاً فكره بما يخطط اليهود الماكرون من المؤامرات في الدولة العثمانية .

قال مرة : لا أخشى من ثورة الروم والأرمن ولا الأرناؤوط ، فأنا قادر على إخمادها ، إلا اليهود فإنهم أغنياء وأذكياء ومن الصعب مكافحتهم .

الحوادث التي توالت أظهرت صواب فكرة عبد الحميد . بواقعة ٣١ من آذار التي أحدثها يهود سلانيك الدونمة والماسون تمّ زوال حكمه ، وشهد بأم عينيه عصاة البلقان وهم ينهبون خزينة الدولة وعاش المآسي الناجمة عن سياسة جمعية الاتحاد والترقي .

لن يتمكن التاريخ من أن يحكم على عبد الحميد بالعجز والفشل .

ولو أن الاتحاديين الذين تربوا في المدارس التي أنشأها عبد الحميد اشتركوا مع السلطان في إدارة الدولة لتوحدت ديناميكيتهم مع تجارب عبد الحميد السياسية ولتغير مجرى التاريخ .

ولو كان ذلك لما ذهب آلاف من الجنود الأتراك ضحية ٣١ من آذار في ثكنة طاش قشلة .

كان للصد الذي لقيه تيودور هرتزل مندوب الصهاينة من عبد الحميد وقع أليم في نفسه ، ظن هرتزل أن الضمانات التي أعطاها إياه إمبراطور ألمانيا ويلهلم كافية لنجاح مهمته ، وأن مبلغ خمسة الملايين ليرة ذهبية تجعل عبد الحميد يستجيب لطلبه ، ولما ظهر عكس ما توقع انتقل إلى البلقان وعقد مع اليهود سلسلة من المؤتمرات حيث توصلوا إلى القرار التالي :

تفويض عمانوئيل قراصو للقيام بالمهمة .

وقراصو هذا عدو لدود للأتراك يتمتع بالجنسيتين الإيطالية والعثمانية . وبعد حوادث ٣١ من مارس كان أحد الأربعة الذين دخلوا على السلطان في قصره وأبلغوه قرار الخلع . وبعد الإعلان الدستوري أصبح نائباً عن ولاية سلانيك .

بدأ النشاط الجديد بتحريك الأقليات غير المسلمة . ليقوم هؤلاء بحركة استفزازية فتحدث مجازر تتدخل إثرها الدول الكبرى لوقفها .

أول عمل من هذا القبيل كان مع الماليسور إذ ثار هؤلاء بالتعاون مع العصاة الأرناؤوط وأنهكوا الدولة العثمانية التي اضطرت لتوجيه جيش جبار لمقاتلتهم والقضاء عليهم .

من هؤلاء فائق ودرويش هيما اللذان عملا مع جريدة ألبانيا ليل نهار لإزالة عبد الحميد . وكان مولهم عمانوئيل قراصو . ومن المعروف أن الثوار الأرناؤوط كلهم ماسونيون .

ولعل أول محفل ماسوني في الإمبراطورية العثمانية افتتحه الإيطاليون هو محفل (برات) مركز ألبانيا .

ومن بين الثوار الأرناؤوط رجل غريب الأطوار اسمه (إسماعيل كال) . لم يترك طريقاً إلا وسلكه في سبيل الحصول على المال أخذ من الصهاينة والإيطاليين والإنكليز وخديوي مصر. حتى إنه كانْ يرسل تقارير عن نشاط السياسيين في الخارج إلى السلطان عبد الحميد ويقبض ثمنها من السلطان نفسه .

في تلك الأيام كانت البلقان تلتهب وعصابات الأرناؤوط

والبلغار والصرب والقرةداغ تهجم على القرى وتقتل موظفي الحكومة والأهالي . مجازر حدثت في بلاد الروم . وقطاعات الجيش العثماني منهكة في إخماد هذه الحركات . فلم يبق هناك شيء اسمه الاستقرار .

كان عبد الحميد في صراع مرّ وحكيم مع هؤلاء . لكن هناك اتفاقاً تاريخه عام ١٥٥٣ بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول حول المواطنين الأكثر رعاية ، تحول فيما بعد إلى جرح لا يندمل في صدر الدولة العثمانية على مدى أربعة قرون وأصبح فيما يسمى بامتيازات الأجانب .

وبسبب ذلك لا تؤخذ من الأجانب ضرائب ومكوس ، دورهم محمية ومصانة لا يدخلها رجال الشرطة ولا تطبق عليهم الإجراءات الاقتصادية ، كانت هناك امتيازات حقوقية ، واقتصادية ومالية . كلها مخلة بسيادة الدولة واستقلالها . فالدولة التي تسودها الامتيازات ليست دولة مستقلة .

الدولة لم تستطع جبي ضرائب التمتع المترتبة على أصحاب الامتيازات التي كانت كسباً لأعداء عبد الحميد في إظهار حكمه

ضعيفاً ، ففي كل مباحثة جرت بين دولة أجنبية والدولة العثمانية كانت الثانية هي الخاسرة . والسلاح الوحيد الذي استخدمه عبد الحميد مع هؤلاء هو الدهاء . إذ لم يلجأ إلى قتل أي معارض لسياسته في الداخل أو الخارج .

لم يحد عبد الحميد طيلة عهده عن طريق العدل قيد أنملة ، وما يدعيه البعض من أنه أحرق طلاب الطب والبحرية في المراجل أو أنه ربط أرجلهم بسلاسل حديدية وألقاهم في البحر ، أكاذيب اختلقها اليهود .

وطوال حكمه الذي استمر ثلاثة وثلاثين عاماً .لم ينفذ حكماً بالإعدام سوى حادثة واحدة فقط . مع هذا فإنه يبدو مستبداً في نظر معارضيه .

كان عبد الحميد يتعقب خصومه ليتعرف على أهدافهم ونقاط ضعفهم بحيث يتمكن من ملاطفتهم وتلبية رغباتهم .

فمثلاً انتهى من ثلاثة خصوم بجرة قلم . هؤلاء هم حلمي طونالي وعبد الله جودت وإسحق سكوتي . عيّن حلمي كاتباً ثالثاً في سفارة مدريد فأنساه مطالبته بالحكم النيابي . وعين

عبد الله جودت طبيباً في سفارة فيينا ، فلم يبق فيه أثر الثورية . وأعطى لإسحق سكوتي درجة دكتوراة في الدبلوماسية بلندن . إلا أن تيودور هرتزل المطرود ، حرّك البلقان ثم ذهب إلى باريس والتقى هناك بحزب تركيا الفتاة وعرض عليهم التعاون معه ، ودفع لهم أموالاً طائلة . وهذا الحزب كان وصولياً يقبض أموالاً تحت أسماء مستعارة حتى من عبد الحميد نفسه .

كان في هذا الحزب أناس صادقون مخلصون أمثال محمود باشا وجامع بك . ظنوا أن القضاء على عبد الحميد يخص الأتراك وحدهم وما دروا أنهم سيصبحون آلة في خدمة سياسة الانتقام التي يعتنقها الماسونيون اليهود .

كان على رأس مخططي وقعة ٣١ من مارس الذين اتخذوا من سلانيك مركزاً لبث سمومهم ، عمانوئيل قراصو ، وزميله الدونمة جاويد الذي أصبح وزيراً للمالية في حكومة الاتحاد والترقي ثم أعدم بتهمة محاولة اغتيال مصطفى كمال ، يبدأ العمل بالمال الذي أعطاه عمانوئيل قراصو للاتحاديين . هذا المال الذي

يبلغ أربعمائة ألف ليرة ذهبية قبضه قراصو من البنك الإيطالي وأعطاه لرجل غني اسمه نجيب دراغا الذي أعطاه بدوره إلى أحد أعضاء جميعة الاتحاد والترقي وهو أيوب صبري الذي تولى صرفه طبقاً للأوامر والإجراءات المتبعة . وبكل أسف كان مصروفاً لأحداث فتنة ٣١ من آذار ذكر عمانوئيل قراصو من قبيل الفخر مراراً أن الاتحاديين نفذوا بأربعمائة ألف ليرة ذهبية مالم ينفذه عبد الحميد بخمسة ملايين .

وفي غمرة النشاط المعادي لعبد الحميد في سلانيك وباريس كانت الصحافة العالمية منهمكة في نشر الدعايات التي تحط من قيمة السلطان العثماني .

الأدوار التي لعبها المحفل الماسوني (ريزورتا) في سالانيك ، هامة جداً . إذ كان على رأسها قراصو . وكذا محفل باريس وجنيف ومحفل فلورنسا . هذه المحافل استطاعت عن طريق حزب تركيا الفتاة الاتصال بالمؤسسات الهامة في الدولة العثمانية وجعلت الفئات المنحرفة من البكداشيين والملاميين والكاشناستيين وكذا بعض أصحاب الطرق والضباط والوزراء

والسفراء والشعراء والكتـاب والمحـامين تنتسب إلى محـافلهـا وتعتنق الماسونية .

من هـؤلاء طـاهر البـورسلي أحـد مـؤسسي جمعيـة الـوطن والحرية (ملامي) .

وشيخ الإسلام موسى كاظم ، وشيـخ الإسـلام خيري أفنـدي والفيلسوف رضا توفيق وكاظم نامي (بكداشيون ماسونيون) .

وطلعت بـاشـا ، وسليـان عسكري ووهيب بـاشـا والملازم عـاطف الـذي قتل قـائـد الجيش الثـالث شمس بـاشـا ، وبطل الحريـــة نيــازي . والبكبــاشي أيــوب صبري (بكــداشيــون ماسونيون) والثوار الأرناؤوط كلهم ماسونيون .

أما عصـابـات البلغـار والصرب والروم فكانوا على علاقـات وارتباطات مستمرة بسلانيك .

أعضاء حزب تركيا الفتاة المخلصون لم يكونوا على علم بنوايا الصهيونيين شركائهم في العمل لذا لم يفهموا إلى أي جهة سترجح كفة الميزان ، فـاستمروا في نشــاطهم وزادوا منــه . وانضم إليهم

أحمد رضا بك ورفاقه وسارت القافلة .

في هذه الفترة كان حزب تركيا الفتاة بإستانبول قوياً في اتصالاته بطلاب المدارس الحربية والبحرية والطب والصيدلة ، ويوزع عليهم الصحف والمجلات المرسلة من باريس .

أما البكباشي محمود بك مدرس اللغة الفرنسية في الكلية الحربية ومعاونه ملازم أول محي الدين بورسلي وفريد بك كانوا يتولون التوزيع .. وقد نفي البكباشي محمود إلى جزيرة رودوس بعد القبض عليه وهرب فريد بك إلى مصر ، ومن تنظيم مدرسة البحرية طلاب أمثال سامي وحيدر ، وعثمان الطرابزوني والملازم أول جواد كريتلي وصفوت بك .

كانت في إستانبول مراكز للبريد خاصة بالأجانب فهناك بريد الفرنسيين وبريد النساويين ، افتتحوها بموجب الامتيازات الممنوحة لهم . هذه المراكز أوصلت الصحف التي كانت تأتي من حزب تركيا الفتاة من باريس .

وكذلك عبد الحليم كريتلي من المدرسة الحربية وأدهم روحي من المدرسة الطبية والملازم الأول فريد من كلية

الأركان وزميله يوسف أقجورا كانوا أعضاء في جمعية تركيا الفتاة وقد أوقفوا جميعاً .

وبالرغم من ملاحقة الشرطة السرية لهم فإن نشاطهم كان يتوسع يوماً بعد يوم . انتسب إلى التنظيم مشايخ التكايا البكداشية وأعضاؤها ، وموظفون في القصر . منهم ثريا وكاظم وخيري وجعفر العربي وعربي بك وأناس لا يتوقع منهم أن ينتسبوا إلى هذا التنظيم .

كان هدفهم إسقاط عبد الحميد من الحكم وتولية سلطان ذي أفكار نيرة متحررة . هذه الفكرة انتشرت خاصة في أوساط الطلبة والضباط .

تعوَّد السلطان عبد الحميد أن يخرج في الخامس عشر من شهر رمضان من كل سنة إلى سراي طوبقاي ويزور الآثار النبوية الموجودة في جناح البردة الشريفة . كان يمر في طريقه من جسر غلطة عند الذهاب ومن جسر أونقاباني عند الرجوع .

ففكروا في تفجير أصابع ديناميت عند قاعدة أحد الجسرين

لحظة مرور عبد الحميد ، ولكنهم صرفوا النظر عنها خوفاً من وقوع ضحايا كثيرة . عرض رضا بك وهو أحد قادة المدفعية أن يقصف قصر يلدز فرُفض عرضه لنفس السبب . وأخيراً تقرر توزيع منشور يحتوي البنود التي عرضها مدحت باشا على عبد الحميد من مشروع الدستور عندما كان رئيساً للوزراء ، وطالبوا الشعب في هذا المنشور القيام بثورة لفرض هذا الدستور . وفعلاً وزع المنشور حتى وصل إلى أبواب القصر .

فقبض على الضابط البحري حيدر بك وهو يوزع المناشير . ومن جهة أخرى قبض على بعض خدم مدارس البحرية فأقروا بأسماء أعضاء التنظيم فسيق أكثرهم إلى ثكنة طاش قشلة وسجنوا هناك وبعد محاكمة لهم برئاسة رشيد باشا صدر الحكم عليهم بالنفي الجماعي إلى طرابلس الغرب .

* * *

السلطان عبد الحميد الثاني

ولد السلطان عبد الحميد الثاني يوم الأربعاء ٢١ من أيلول سنة ١٨٤٢ ميلادية وهو ابن السلطان عبد الحميد من زوجته الثانية . توج الخلافة بعد أخيه مراد ، يوم الخميس ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٦ ميلادية وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين سنة .

عندما تولى الخلافة كانت الديون المترتبة على الدولة تبلغ ٢٥٢,٨٠١,٨٨٥ ليرة عثمانية . كان عليه أن يستعد لمجابهة الموقف وإيفاء الديون حتى يرد من اعتبار الدولة تجاه الدول الخارجية فاستقدم خبراء ماليين من أوربا حيث أعدوا له تقريراً بإمكانية وفاء هذه الديون .

وعندما تقرر تشكيل إدارة الديون العامة كان إجمالي هذه الديون منخفضاً حتى أصبح ١٠٦,٤٣٧,٢٣٤ ليرة ذهبية .

وقد أخذت بعض القروض بعد ذلك إلا أن أكثرها سُدِّد من الواردات . وبعد اعتلائه العرش وقعت الحرب بين الروس

وبين الإمبراطورية العثمانية في (١٢٩٣ رومي) . كانت هذه الحروب خسارة فادحة للدولة إذ راح ضحيتها ناس كثيرون وفقدت قطعة كبيرة من الأرض . حاول عبد الحميد تفادي وقوع الحرب وأراد أن يجرب الطرق السياسية إلا أن مجلس الوزراء اتخذ قراراً معكوساً أدى إلى نشوب الحرب ، ونتيجة للهزيمة المنكرة التي منيت بها الدولة العثمانية تقدمت القوات الروسية حتى وصلت إلى أسوار إستانبول . حينئذ اضطرت الدولة العثمانية إلى قبول شروط قاسية ودفع تعويضات وإعطاء امتيازات للأجانب وذلك في معاهدة إيستفانوس .

وفي الحرب اليونانية التي وقعت في ١٨٩٧ اضطر عبد الحميد إلى دفع أكثر مصاريفها من خزينته الخاصة وكان ينفق من ماله الكثير على الفقراء والمحتاجين .

عبد الحميد يعتبر أعظم خليفة في عصر انحطاط الدولة . وقد يكون مرتكباً أخطاء إدارية إلا أن الذين لا شك فيه أنه قام بأعمال كبيرة وجليلة لخير الدولة . فالأعمال التي قام بها تملأ كتباً ومجلدات وبخاصة في مجال التعليم . عبد الحميد هو الذي

رفع مستوى الثقافة . فالمؤسسات التي أنشئت في عهده قائمة حتى الآن ليس لأحد أن ينكرها .

وهذا بعض ما أسس : دار العلوم السياسية ، الجامعة بفروعها : العلوم والحقوق والآداب ، أكاديمية الفنون الجميلة ، كلية الهندسة العالية ، مدرسة المالية ، مدرسة التجارة ، مدرسة الزراعة العليا ، مدرسة التجارة البحرية ، مدرسة الإخراج والمعادن ، مدرسة اللغات ، مدرسة المعوقين ، دار المعلمات ، مدرسة الفنون النسوية .

ويعتبر عبد الحميد مؤسس التعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي ، فأنشأ المدارس الإعدادية والثانوية في كافة الولايات وأكثر المناطق . وافتتح في إستانبول فقط ستة مدارس ثانوية وكذلك افتتح المدارس الابتدائية في جميع القرى ، وجعل تعليم اللغة الأجنبية إلزامياً في المرحلة الإعدادية . كذلك أنشأ دور للمعلمين في عدد كبير من الولايات ، ومدارس للحقوق في بعضها . وها هي بعض المؤسسات الثقافية التي افتتحها : متحف الآثار القديمة ، المتحف العسكري ، مكتبة

بايزيد ، مكتبة يلدز ، مدرسة الطب ، ثانوية حيدر باشا .

وأسس أيضاً مستشفى الأطفال ودار العجزة من ماله الخاص . وكذلك مركز البريد العام ، ومبنى دار الفنون ، وقساطل المياه التي أنقذت إستانبول من العطش (مياه الحميدية) . ودار النفوس العام والغرف التجارية والزراعية والصناعية .

وفي عهده جرى توسيع معمل الطرابيش وافتتح معمل الخزف ، وبعد هذا وذاك جرى في عهده تمديد الخطوط الحديدية من دمشق إلى المدينة بطول ١٣٢٧ كم المسمى بالخط الحديدي الحجازي خدمة للإسلام والمسلمين .

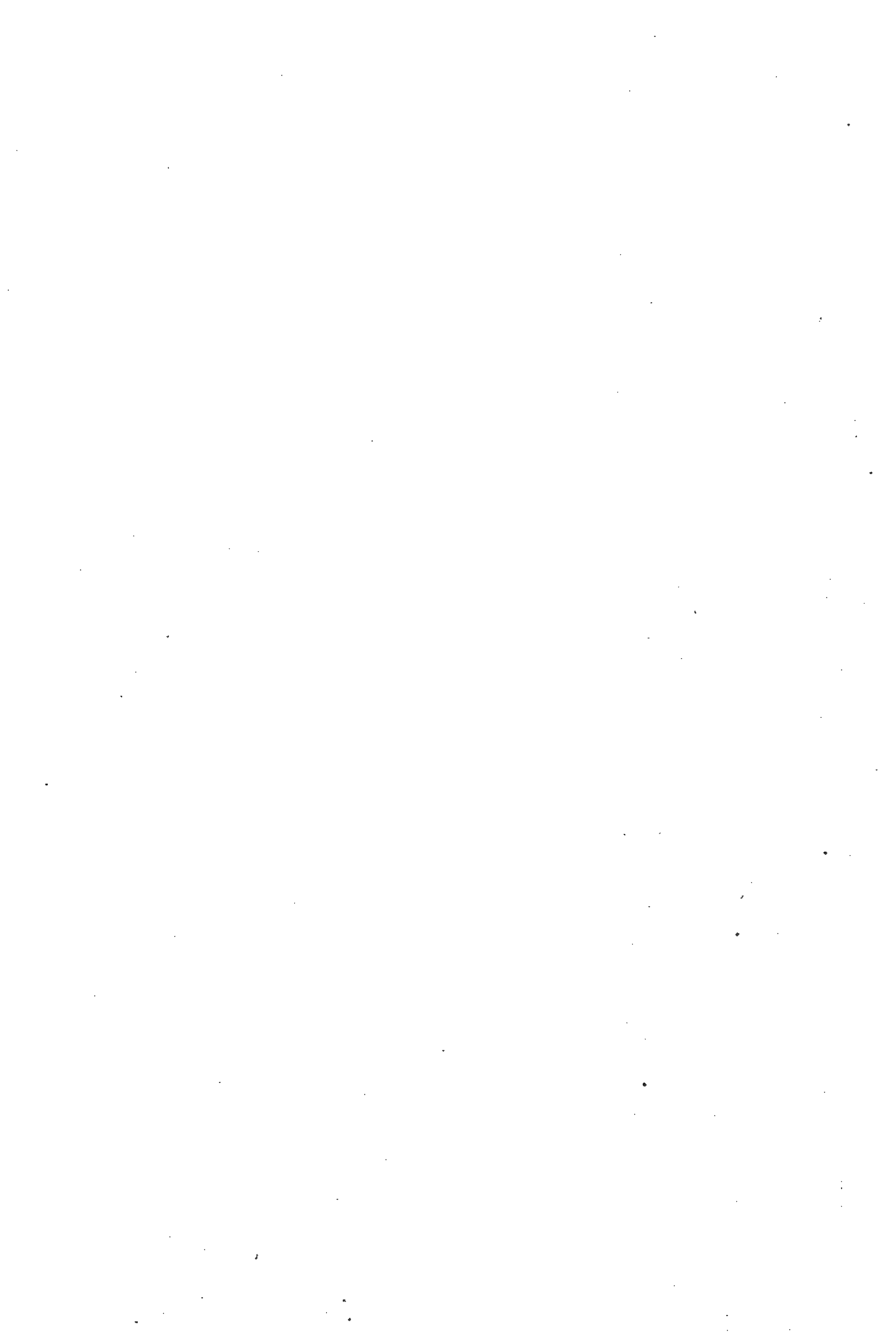
وإصلاحات السلطان عبد الحميد العسكرية هامة جداً . فقد استقدم عدداً من الجنرالات الألمان المختصين ، منهم : فون دركولج وفون هوفذ وكامب هوفذ . حيث دربوا الجيش العثماني حسب متطلبات العصر . وأرسل بعثات عسكرية للتدرب في الجيش الألماني ، وافتتح الإعداديات العسكرية وجهز الجيش بالأسلحة الحديثة .

كان عبـد الحميـد متــأثراً تــأثراً نفسيــاً من حـوادث جرت لأسلافه فوقع في بعض الأخطاء . وإذا نظرنـا نظرة موضوعيـة إلى المبالغات التي قيلت عنـه ، فـإن مئـات آلاف التقـارير التي تأتيـه عن كل شيء بـدءاً من الشخصيـات الكبيرة إلى أصغر فرد في البلاد . كافية لأن تقلب أحاسيس الإنسان رأساً على عقب .

إننا إذا استعرضنـا قـادة العـالم وازديـاد حسـاسيتهم على مر الزمن وإنهم يحذرون كل شيء لما اكتفينا بإعذار عبـد الحميـد بل أوجب علينا الإنصاف أن نكبر فيه جرأتـه وقوة أعصـابـه . فمع أوهـامـه هـذه ، قـدم للبلاد خـدمـات جُلّى . وكان يملـك من الذكاء والذاكرة وقوة التأثير بشكل يحير العدو والصديق .

وقد كان أيضاً متديناً من غير تعصب ، عصامياً بكل مـا في الكلمة من معنى .

* * *



عبد الحميد والعرب

كان للدولة العثمانية ثلاثة جيوش في البلاد العربية قياداتها في دمشق الشام وبغداد وصنعاء اليمن . لم تسترح هذه الجيوش قط . حيث تستمر الثورات والتحرشات ، وتتعرض المراكز للهجوم فيضطر الجيش للبقاء على استعداد دائم . هناك في صحاري فلسطين واليمن والعراق مشيخات وإمارات شبه مستقلة والقبائل تتحين الفرص للسلب والنهب فتسمي هذه العمليات بالغزوات .

عرف السلطان عبد الحميد كيف يعامل هؤلاء . فأرسل ممثلاً شخصياً له هو رشيد باشا حيث يوصل إليهم كل سنة هدايا السلطان من الذهب وافتتح مدرسة سماها مدرسة العشائر في إستانبول يدرس فيها أولاد الأعيان العرب من سورية والعراق واليمن وغيرها . واستطاع بعض العرب أن يرقى إلى أعلى المناصب في الدولة . وشكل كتائب الزحوف العربية واتخذها حرساً خاصاً للقصر . وقد حازت هذه الكتائب

إعجاب الأجـانب . ولمـا وقعت حـوادث ٣١ من آذار ، كانت كتائب الزحوف أول من تقيد بالأوامر السلطانيـة ، فلم تشترك بأي حركة تسيء إلى السلطان أو إلى الدولة .

وطـوال حكم عبـد الحميـد لم تنقطـع رواتب الأشراف من آل البيت إذ كانت تصل إليهم بانتظـام بـالإضـافـة إلى ذلـك كانت تصل إليهم هدايا ونياشين دورية من السلطان .

وكان هناك يوم خاص يحتفل فيه بإستانبول بمناسبة إرسال سترة الكعبة إلى الحج ومع السترة ترسل أعلام وهدايا ثمينة .

عبد الحميد والأكراد

كان في الولايات الشرقية والجنوبية من تركيا عدد كبير من الأكراد أكثر هؤلاء لا يعرف اللغة التركية ، أغلبهم شيعة والقليل منهم من أهل السنة . عاشوا تحت إمرة شيوخهم في استقلال ذاتي لا يدفعون الضرائب ولا يتعايشون مع الأتراك . استطاع عبد الحميد أن يسوسهم بالطرق الدبلوماسية فدرّس أبناءهم في مدرسة العشائر في إستانبول . وعين بعضهم في مناصب الدولة ومنهم من قدم للبلاد خدمات جلى .

ومن أشهر رجالات الأكراد في عهد عبد الحميد علي شامل باشا الذي كان من كبار المتنفذين حتى إنه بسبب خلاف وقع بين أخيه وأمين العاصمة رضوان باشا صحح على قتله ، وقتله فعلاً على أيدي رجاله . الأمر الذي أدى إلى غضب عبد الحميد عليه فنزع منه رتبته ونفاه هو وعشيرته إلى طرابلس الغرب .



عبد الحميد والأرمن

عندما تولى عبد الحميد الخلافة كانت روسيا القيصرية تتبع سياسة الصداقة مع العثمانيين في الظاهر إلا أنها سعت في الوقت نفسه بفصل السلافيين والصرب و بلغار والقرة داغ عن الدولة العثمانية . وفي عام ١٨٧٧ أسفرت عن وجهها الحقيقي ودخلت في حرب مع العثمانيين كانت نتيجتها فصل أكثر مناطق البلقان عن الدولة . وفي معاهدة برلين اضطرت الدولة العثمانية لقبول الأمر الواقع إلا أنه بفضل ضغط الألمان على الروس بقيت بلغاريا فترة أخرى تحت الحكم العثماني .

في تلك الفترة سادت العالم الأوربي فكرة تقول بأن حل أي مشكلة كامن في اقتطاع أي جزء جديد من جسم الإمبراطورية العثمانية . وفعلاً كانت البوسنة والهرسك وألبانيا وطرابلس الغرب والكردستان وأرمينية والوهابية مشكلات تنتظر دورها في الحل على الطريقة الأوربية .

ولإنشاء دولة أرمنية نذر الأرمن أنفسهم أدلّاء لروسيا

القيصرية . فقامت عصابات الطاشنـاق والهتشـاق بنشر الرعب في الأناضول والقيـام بحركات الإبـادة والتمرد ليكونوا السبب في تـدخـل الـدول الأجنبيـة . ثم إنهم أصبحـوا مطيـة لليهـود في محاولتهم اغتيـال عبـد الحميـد عنـد خروجـه من صلاة الجمعـة في يلدز . وحاولوا نهب البنك العثماني وتعـاونوا مع الصهيونيـة إلى أبعد الحـدود لتحقيق هـدفهم المشترك وهو القضـاء على الـدولـة العثمانية . وعندما أراد الأرمن ضرب الجيش العثـماني من الخلف أثناء الحرب العـالميـة الأولى وأثنـاء التحريـات التي أجريت في أماكن عبادتهم عثر على كميات هائلة من الأسلحة الروسية .

لذا قرر الاتحاديون تهجيرهم . وقد لحق الظلم ببعض الأرمن من التهجير لكن كانت عصاباتهم هي السبب في هذا التهجير .

* * *

عبد الحميد واليهود

ذكرنا سابقاً أن اليهود عاشوا أهنأ أيامهم في عهد عبد الحميد . ومع هذا كانوا هم السبب في سقوط حكمه لعدم تساهله معهم حول الهجرة إلى فلسطين .

ولو قبل عبد الحميد الرشوة التي قدمها تيودور هرتزل لما سقط حكمه .

فاليهود هم قبيلة أصلهم من جزيرة كريت جاؤوا إلى أرض فلسطين وحكمهم رمسيس الثاني فأصبحوا تبعاً له إلى أن استرجعهم الملك داود . وبعد القرن السابع ضاعوا في مجاهل التاريخ في حين بقي اسمهم في القدس بتعايش الأديان اليهودية والنصرانية والإسلام . والمكان الذي أتى إليه عيسى عليه السلام من الناصرة على ظهر حمارة وجلس وأكل فيه . هو الآن قبلة اليهود (جبل صهيون) ، الذي يرقد فيه تيودور هرتزل المطرود . ويذكر التاريخ أن هذه البلاد حكمها البابليون والحثيون وإسكند الكبير والرومان والعرب والصليبيون والتتار والعثمانيون ..

ذكر إسرائيل كوهين في كتابه « الحركة الصهيونية » ص ٧٧ ما يلي : « بتاريخ ١٨ من مارس عام ١٩٠١ تقدم يهودي مجري اسمه أورمينوس ومبرغ بمبلغ ضخم من المال إلى السلطان عبد الحميد يريد شراء فلسطين لليهود فما كان من عبد الحميد إلا أن طرده من القصر على الفور » .

ويقول في مكان آخر من الكتاب :

« وفي ٢٣ من تموز (يوليو) عام ١٩٠٢ طلب تيودور هرتزل من عبد الحميد أن يعطي فلسطين لليهود ، فأجاب عبد الحميد إن اليهود يقيمون في كل أنحاء الممالك العثمانية ، فإن لم يكن لهم مكان للإقامة فبإمكانهم أن يسكنوا في العراق أو سورية أو حتى في بلاد الأناضول أما فلسطين فليس هناك مجال لطلبها . ولما رأى هرتزل ذلك من عبد الحميد ، عرض عليه رشوة مقدارها ٥ ملايين ليرة ذهبية فكان هذا التصرف سبباً لطرده من القصر على الفور » .

* * *

من الاستبداد إلى الحرية

في الوقت الذي استمر فيه حزب تركيا الفتاة بالنشاط في باريس وإستانبول وبلاد الروم . تشكلت منظمة سرية بين ضباط الجيش الثالث في مناستر وسلانيك وغيرها ، غايتها إسقاط حكم عبد الحميد الاستبدادي والعودة إلى روح الإعلان الدستوري الأول والحرية ، والتمسك بالدولة العثمانية وعدم التفريق بين المواطنين من أي دين أو عرق أو صنف كانوا . وتقوية الخلافة وجعل الجيش سنداً للثورة .

وفي أغسطس عام ١٣١٥ رومية قام موزع البريد طلعت أفندي مع سبعة من أصدقائه بتشكيل أول خلية لجمعية الاتحاد والترقي في سلانيك .

سمع بالنبأ أحمد رضا وهو أحد كبار أعضاء حزب تركيا الفتاة بباريس فأرسل الدكتور ناظم إلى سلانيك للاتصال بالتنظيم الجديد وتأييده ، اتصل هذا بطلعت وبعد أخذ ورد تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس وأطلق عليه اسم

التنظيم الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي .

فجرى أول انتخاب في التنظيم الداخلي بتدبير من طلعت الذي كان قد رقي إلى درجة كاتب أول في إدارة البريد .

أحس المحفل الماسوني في سلانيك بأن طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية فاتصلوا به وسجلوه في عداد الماسونيين ورقي طلعت إلى عدة درجات في المحفل الماسوني وأصبح يتقاضى منه راتباً شهرياً مقداره عشر ليرات إنكليزية . كان الرأس المدبر للماسونية في سلانيك هو عمانوئيل قره‌صو اليهودي . وقد استطاع هذا أن يحتضن طلعت أكثر فأكثر .

أخبر عبد الحميد بما يجري في أوساط الجيش الثالث وذلك عن طريق عيونه التي بثها في كل مكان . وفي هذه الأثناء قدم طلعت وقره‌صو إلى إستانبول لتوثيق العلاقة مع تنظيم إستانبول لحزب تركيا الفتاة . فألقي القبض عليهما ، واستجوبا أمام لجنة خاصة شكلت بقصر مليرز بصورة مستعجلة ، استطاع قره‌صو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ طلعت معه إذ قال : نحن ماسونيون لا ننكر ذلك لكننا لسنا أعضاء في جمعية

سرية ، فاقتنعت اللجنة بكلامه .

كان من بين أعضاء اللجنة رجل اسمه محمد باشا (أعدم بعد إعلان الحرية) جاهل بكل ما في الكلمة من معنى ، سأل قرەصو : ما هي الماسونية ؟ فأجاب اليهودي : الماسونية هي الإنسانية الكاملة .

ـ يقال إن لهم إشارة خاصة ؟

ـ نعم ياسيدي .

ـ انظر ، هل بيننا أحد ماسوني .

ـ حاشا ياسيدي الباشا لا يوجد بينكم أحد ماسوني .

ثم أطلق سراحهما . لكن عبد الحميد كان يعرف ما يبيتان ، فأمر بملاحقتهما سراً .

ولدى عودتهما إلى سلانيك وجدا أن نشاط الجمعية قد ازداد ودخل فيها شخصيات هامة في الجيش ، من بينهم (البكباشي جمال بك ـ جمال باشا فيما بعد) وكان من أركان حرب الجيش الثالث ، و (قائد الجناح فتحي بك ـ فتحي أوقيار) ، و

(قائد الجناح مصطفى كمال - أتاتورك) وكان قادماً من دمشق الشام .

انفجر الموقف بالشرارة الأولى التي انطلقت في مناستر مقر قيادة الجيش الثالث . حدث أن اغتيل قائد الجيش الفريق الأول شمسي باشا الأرناؤوطي على يد الملازم عاطف بك أحد فدائيي الجمعية . واستطاع الجاني بمساعدة رفاقه أن يتوارى عن الأنظار . كانت هذه الحادثة سبباً في الاضطراب الشعبي .

ومن جهة أخرى كانت ترسل قوات إلى الجبال بقيادة المشير عثمان باشا الططري . في هذه الأثناء قام قائد الجناح نيازي بك بالسيطرة على مركز البريد في رُسنة وأرسل من هناك برقية إلى السلطان عبد الحميد يعلمه فيها أنه سيعلن الحرية والدستور ويطالبه أن يقبل ذلك دون قيد أو شرط . وإلا فالمسؤولية الكاملة تقع عليه ، وينضم قائد الجناح أغور بك إلى زميله نيازي .

أرسل السلطان برقية إلى المفتش العام هناك حسين حلمي باشا يسأله فيها عن قوة الاتحاد والترقي وعن الوضع ، فكان

الجواب : مولاي جلالة السلطان . أود أن أعلمكم أن كل فرد هنا سواي عضو في جمعية الاتحاد والترقي .

أسندت مهمة القضاء على جمعية الاتحاد والترقي للمشير خيري باشا الذي كان موجوداً في سلانيك ولكنه رفض هذه المهمة . عندئذ تكفل بالأمر إبراهيم باشا قائد منطقة سرز (SEREZ) وأرسل الفريق شمسي باشا إلى مناستر لكن هذا الأخير اغتيل على يد الملازم عاطف .

هزت الحادثة السلطان عبد الحميد هزاً عنيفاً إذ كيف تقع حادثة الاغتيال تحت سمع وبصر ثلاث كتائب من الجيش وفي ساحة مكتظة بالناس .

وفي الصباح الباكر من يوم الخميس ٩ من تموز سنة ١٣٢٤ اجتمع مجلس الوزراء ودام الاجتماع حتى الساعة الثامنة من الليل ، جرت فيه مناقشات حامية اشترك فيها رضا باشا قائد الجيش ودافع عن المطالبين بالحرية ، أما إسماعيل باشا فقد طالب بالتنكيل بالمتمردين والقضاء عليهم . وفي يوم الجمعة العاشر من تموز تأخرت الصحف عن النشر فبدأت

التساؤلات : لم تأخرت الصحف ، من السبب ، في حين كانت الحرية قد أعلنت في مناستر وسلانيك وأصوات المدافع تلعلع في كل مكان . وبلاد الروم كانت ترقص من نشوتها . ولم تتدخل قوة عسكرية لمنع هذه التظاهرات . فالسهم خرج من قوسه . وبعد تأخر ساعات صدرت الصحف معلنة عن أن الحكم سيكون مقيداً في كافة الأقطار والممالك العثمانية وإن إرادة سنية ستصدر بهذا الشأن .

وبعد قليل سمعت أصوات المدافع حول إستانبول وتعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين ، وأعلنت الحرية بشعاراتها الثلاثة : العدالة والمساواة والأخوة يوم الجمعة في العاشر من تموز سنة ١٣٢٤ .

استقبلت جماهير إستانبول جماعة الاتحاد والترقي استقبال الأبطال المنقذين ، وهتفت بسقوط الاستبداد وبحياة النيازيين والأنوريين وقام الخطباء من كل جانب يهنئون بالحرية ويلعنون الاستبداد .

ومن جهة أخرى صدرت قرارات إعدام عاجلة على بعض

كبار ضباط الشرطة السرية ، من هؤلاء ، فهمي باشا الذي فر إلى يني شهر فقبض عليه الأهالي وقتلوه بالعصي والحجارة . وعزت هولو باشا الدمشقي السرياني والكاتب العام للقصر الذي استطاع الهرب إلى خارج البلاد .

وفي يوم السبت الحادي عشر من تموز سنة ١٩٠٨ كانت أصوات بائعي الصحف تدوي في شوارع إستانبول معلنة نبأ استقالة وزارة فريد باشا وتعيين سعيد باشا رئيساً للوزراء وجمال الدين أفندي شيخاً للإسلام . وإعلان الحرية والدستور ، فقد مضى عهد الاستبداد وبدأ عهد الحرية ، ولقد رأت أجيالنا فيما بعد أي شيء هذه الحرية ، عاشت مصائب ونكبات خُنق فيها البشر كالكلاب على أعواد المشانق وطعن الأبطال بالحراب في صدورهم وشهدت الأرض التي أقسم جيشها على تحقيق الحرية ، حمامات الدم والإبادة الجماعية . كل ذلك كان في عهد الحرية .

العفو العام

كانت الإمبراطورية العثمانية تمتد من جبال البلقان إلى القفقاس ومن الصحراء الكبرى في إفريقيا حتى المحيط الهندي ، وتمتلك اثنتي عشرة جزيرة في بحر الخزر (إيجه) ، وعلى أثر إعلان الحرية تقرر العفو العام ففتحت السجون في كافة الممالك العثمانية ، فلم يبق فيها أحد ممن حكم أو أوقف . كانت هذه أول مرة يصدر فيها العفو العام على جميع المستويات في تاريخ الإمبراطورية .

إن إعلان الاتحاد والترقي العفو العام هو أول خطأ كبير ارتكبته بحق هذه البلاد ، فما إن فتحت أبواب السجن حتى انتشر آلاف المجرمين من مختلف الأجناس في أنحاء المملكة ، فكانوا سبباً في خلق كثير من المتاعب .

وفي غمرة الفرحة التي عمت إستانبول كان نزلاء سجن السلطان أحمد يهتفون بحياة عبد الحميد مطالبين بإعلان العفو العام ، ويحاولون تحطيم الأبواب والنوافذ

أمـا مجلس الوزراء فقـد اجتمع تلـك الليلـة أي ١٠ من تموز وقرر العفو العام ثم قدمه إلى القصر لمصادقته وإعلانه ، فلما قرأ السلطان محتوياته سأل الوزراء الذين جاؤوا إليه :

أليس في هذا الشمول خطر على الدولة ؟ ولما أجـابوا ليس هناك أي خطر يامولانا . قام بالتوقيع على القرار .

هـذا وقـد تلي القرار على جميع السجنـاء والموقوفين إذ ينص على إخلاء سبيلهم دون قيد أو شرط .

عمت المظـاهرات أرجـاء إستـانبول حيث كان المتظـاهرون يهتفون بحياة النيازيين (نسبة إلى نيـازي) والأنوريين (نسبـة إلى أنور باشا) والاتحاديين ، وبسقوط الاستبداد .

وفي ١١ من تموز جاء إلى السجن المركزي وفد رسمي يرافقـه شيخ مسلم وراهبان رومي وأرمني ، وحاخـام يهودي ذو عمـامـة وجبـة خضراوين . ثم وضـع أمـام بـاب السجن الرئيسي وعلى منضـدة واحـدة أربعـة كتب : مصحف ، وإنجيـلان ، وتـوراة فوقف الجميع ، ثم تـلا المـدعي العـام قرار العفـو العـام ، وأعقب ذلك الدعاء للسلطان بالتوفيق والعزة والنصر ثم وقف السجنـاء

في رتل طويل وبدؤوا بالخروج من سجونهم .

إنـه منظر مؤلم ، ومسـألـة تستـدعي التفكير العميـق ، فالغالبية العظمى من السجناء ممن تردت أحوالهم والبعض منهم تظهر عليه آثار التنعم والتسلط والبذخ .

كان المدعي العام يسأل عن اسم السجين ثم يأمره بـأن يضع يده على الكتاب الذي يؤمن به ويحلف ألا يرتكب جريمة بعـد الآن ، ويطلق سراحه ، وعنـدمـا غربت الشمس كانت السجون خالية تماماً من نزلائها ، وكان مئات القتلـة واللصوص وهُتّـاك أعراض النـاس قـد دخلـوا في خضم المظـاهرات والمسيرات في إستـانبـول وسـائر المـدن الأخرى . إن من هـؤلاء مَن إذا أخـذ قسطاً من دفء الشمس انقلب ثعباناً فتاكاً ، إنهـا فرصـة ذهبيـة لأن يشبع هؤلاء كل غرائزهم ومكبوتاتهم . كانت هنـاك حريـة مطلقـة ، وإن شئت فقـل فـوضى ، ليس لأي قـوة إداريـة أن تتدخل للحد منها .

لقد شهدت بأم عيني حـادثـة تقشعر منهـا الأبـدان مـازلت أتخيلهـا . إذ كان من بين المسجونين وحش في صورة بشر اسمـه

أحمد الجزار حكم عليه بالإعدام بسبب قتله عدداً من الأشخاص ، ثم خفض الحكم إلى المؤبد ، ولما أطلق سراحه مع بقية المحكومين نزل إلى الشارع وأخرج سكينة من جيبه وبدأ يطعن كل من يصادفه في الطريق فقتل تسعة أشخاص ثم توارى عن الأنظار ، ونشرت الصحف الحادث بالتفصيل وتمكن القاتل من الفرار إلى اليونان .

إن غرضي من سرد هذه الحادثة هو بيان الحالة النفسية للناس وكذلك نصيب هؤلاء القتلة والمجرمين في أحداث مآسي ٣١ من آذار وما تلاها من أعمال السلب والنهب . هناك كثير من الناس يحاولون الاصطياد في الماء العكر ولقد رأينا نماذج منها في حركة الإصلاح الأولى قبل قرن من الزمان .

إن كثيراً من المآسي عبر القرون كانت بسبب بعض السياسيين الطامعين الذين يتسترون وراء الحق في سبيل الوصول إلى مطامعهم ، إنهم جراثيم حية تغلغلت في عروق هذا المجتمع .

فهؤلاء هم الذين وضعوا ٣١ من آذار (مارس) على مسرح

الأحداث[١] ، لقد أطلق العنان للصحافة فاستغل الأعداء هذا الوضع فصاروا يستخدمونها لتلبية أهدافهم ، وعمدوا إلى تطبيق خطة مدح الاتحاد والترقي والنيل من مكانة الخلافة العثمانية .

إن الفاصل الزمني بين إعلان الحرية وخلع السلطان عبد الحميد هو تسعة أشهر وخمسة أيام لم تستطع أركان جمعية الاتحاد والترقي خلالها السيطرة الكاملة على الحكومة ومن كسر شوكة السلطان إذ إن الهدف الأصلي لم يتحقق ، فلابد من إسقاط ما أسموه بالحكم الاستبدادي والوصول إلى الهدف المنشود . لذلك قدم إلى إستانبول وفد اتحادي من سلانيك يضم طلعت وأنور وجاويد ورحمي وعقدوا اجتماعاً دعوا إليه رؤساء الدوائر والولاة والمتصرفين والقائمقامين وطلبوا منهم تنسيق المواقف مع مراكز الجمعية والعمل في نطاق الأسس والمراحل المقررة من قبلهم فاستغل البعض منهم اسم جمعية الاتحاد فصاروا يفرقون بين الاتحادي وغير الاتحادي في المعاملات ، الأمر الذي أدى إلى فقدان الثقة الشعبية في الإدارة .

---

(١) وكان المستفيد الأكبر هم اليهود وعلى رأسهم جاكوب شيف .

ومن جهة أخرى ظهر إلى الوجود أبطـال للحريـة مزيفون كالهرر تحكي انتفاخاً صولة الأسد فكانوا عوامل هـامـة في إخراج أحـداث ٣١ من آذار إلى حيز الوجود وسنتطرق إلى بعض هـذه العوامل :

فهنـاك طبقـة المسرحين من الخـدمـة لاتهـامهم بـالظلم والاستبداد ، طردوا من أعمالهم دون أية تعويضات .

أمـا الجيش فكان مـؤلفـاً من صنفين من الضبـاط ، صنف دخل الكليات العسكريـة فتخرج ثم ترقى ، وصنف ترقى بفضل خدماتـه وتحملـه المشـاق في شتى أنحـاء الإمبراطوريـة التي تبلغ مساحتهـا أربعـة ملايين كيلو متر مربع يقطن فيهـا ٣٤ مليونـاً من البشر ، خـدم في مجاهـل اليمن الحـارة وصحـاري الحجـاز الجافة ، كما ذاق الأمرَّين في مواجهة عصابـات البلغـار والصرب واليونان ، فكان عسكرياً متمرساً ترقى عن جدارة .

هؤلاء سرحـوا من الجيش بجرة قلم دون أيـة تعـويضـات أو رواتب فساءت أحوالهم فلجؤوا إلى صف المعادين للحكم .

كما انضم إلى هـؤلاء طلبـة المـدارس الشرعيـة حين قررت

الحكومة تطبيق التجنيد الإجباري عليهم بعد أن كانوا معفيين منه .

أما في جمعية الاتحاد والترقي فقد انقسم الضباط إلى قسمين : قسم ظفر بمناصب هامة ومنهم القائم المقام أركان حرب جمال بك (جمال باشا) والبكباشي أركان حرب أنور بك (أنور باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش فيما بعد) والبكباشي أركان حرب فتحي بك (فتحي أوقيار) الذين أصبحوا ملحقين عسكريين .

وقسم عزَّ عليه أن تكون الأسلاب خاصة ببعض دون بعض ، ولما لم يظفر بأي شيء لجأ إلى المعارضة فتشكلت بذلك لجان المنقذين والمجددين والأرناؤوط . وبدأت كل لجنة تسعى على انفراد للوصول إلى مبتغاها . فكان هذا الوضع فرصة ذهبية للدونمة المتشبعين بروح اليهود الذين تستروا بقناع الثورية لينقضوا على الدولة ، فعملوا على توسيع شقة الخلاف بين الحكم والمعارضة وتأزيم الأمور .

أما أبطال الحرية فلم يأبهوا بما يبيته رفاق الأمس بل

سخروا من معارضتهم ، وأما الصحافة فقد وقفت إلى جانب المعارضة وصارت توجه الانتقادات إلى الضباط الحاكمين وبذا بقيت جمعية الاتحاد والترقي مشلولة تجاه مؤيدي الضباط ومعارضيهم ، فلم تتمكن من تثبيت دعائم الحكم وبدأ ضعاف البصائر من سياسي الجمعية يسلكون طريق التصفية داخل الجمعية وخارجها .

كان الصراع عنيفاً بين الاتحاديين المتطرفين وبين معارضيهم من أنصار الحرية المعتدلين وقد هدد المتطرفون أصحاب الصحف التي ما فتئت توجه الانتقادات إليهم ، بسحقهم إذا هم استمروا في انتقاداتهم ، ولكن الصحافيين الذين اتخذوا من الحرية مبدءاً يسيرون عليه لم يلتفتوا إلى هذه التهديدات مهما كلفهم الأمر أما المتطرفون فقد كانوا جادين في تهديدهم فبدؤوا بحسن فهمي بك رئيس تحرير جريدة سربستي ، فقتلوه ليلة السابع من نيسان عام ١٩٠٩ على جسر غلطة وألقى القتلة أنفسهم في البحر حيث كان زورق صغير بانتظارهم فلاذوا بالفرار قبل أن تتمكن الشرطة من القبض عليهم وقد اعتقل عدد من المشتبه بهم لكن القتلة الحقيقيين كانوا من كبار رجال

الجمعية فلم تتمكن التحقيقات من الوصول إلى الحقيقة وبقي الجناة في منأى من قبضة العدالة . فأحد الجناة هو أمين الذي كان من الشرطة السرية قبل إعلان الحرية ، فالتحق بعدها بالجهاز السري لجمعية الاتحاد والترقي ، أما الآخر فهو وحيد الإسكداري الذي كان محكوماً عليه بالسجن المؤبد فشمله العفو العام ، فخرج من السجن ليستأنف جرائمه وعندما احتلت إستانبول من قبل الإنكليز صار يعمل لحسابهم فقتل عدداً من المواطنين الذين قاوموا الاحتلال ، ولما تحررت إستانبول على يد القوات الوطنية لم ير هذا الجاني بدأ من الهرب إلى مصر . ولم تمض مدة طويلة من الاغتيال السابق حتى اغتيل صحفي شاب اسمه أحمد حميم في وضح النهار وعلى ملأ من الناس وقد التجأ الجناة إلى مخفر قريب لا يبعد أكثر من عشرين خطوة من مكان الحادث كما سرقت خزينة وزارة الأوقاف ولم يقبض على الجناة ، أما قتلة زكي بك فهما ناظم الجركسي وأحمد[1] من فدائيي جمعية الاتحاد والترقي .

---

(١) أعدمهما جمال باشا بدمشق لاغتيالهما زهراب وارتكس أفندي حيث كانا في طريقهما إلى المحاكم الميدانية في وان خلال الحرب العالمية الأولى .

كان هنـاك من يعرف القتلـة الحقيقيين لكن أحـداً لم يجرؤ على البوح باسم أحد منهم .

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الأول عـام ١٩٠٨ استُـدرج ماهر بـاشـا (وهو من رجـال السلطـان عبـد الحميـد) من قبل موظفين إلى خارج بيته بحجـة دعوتـه إلى اجتماع هـام في وزارة الحربية ، ثم قتل في قـارعـة الطريق . وحُكم على الفريق وفيق باشا قائد فرقة الخيالة الأولى السابق ، مدة ستة أشهر .

مجلس المبعوثان

بعد إعلان الدستور أصبح القصر العدلي الكائن في حي السلطان أحمد بإستانبول مقراً لمجلس المبعوثان ، وكانت مساحة الإمبراطورية العثمانية وقتذاك تزيد على ٤ ملايين كم٢ وعدد سكانها ٣٤ مليون نسمة وإلى جانب ولايات حلب ودمشق وبيروت ومكة والمدينة والحجاز والموصل واليمن وطرابلس الغرب كانت بنغازي وجبل لبنان والقدس متصرفيات مستقلة بينما كانت مصر إقليماً له استقلاله الداخلي حيث يعين أميرها من قبل الحاكم العثماني .

أما في بلاد الروم فقد كان للدولة العثمانية ٧ ولايات وعدد من المتصرفيات تقرر بعد إعلان الحرية أن يكون لكل ولاية ومتصرفة نواب يجتمعون في مجلس واحد للتباحث في شؤون هذه الولايات والمتصرفيات ، حيث جرت مناقشات مثيرة واتخذت قرارات هامة كان لها أكبر الأثر في أحداث ٣١ من آذار وفي مستقبل الإمبراطورية العثمانية .

كانت الأيام تمضي بينما سلبيات نواب الأقوام غير المسلمة تزيد يوماً بعد يوم وفقاً لمخططات الماسونيين الذين جعلوا من أحمد رضا بك الماسوني رئيساً للمجلس ليلبي رغبات حزب الشباب الأتراك من جهة ورغبات الصهاينة من جهة أخرى . وأحمد رضا بك لم يكن تركياً خالصاً بل ولد لأب اسمه علي الإنكليزي من زوجته النمساوية غير المسلمة وقد عرف عنه أنه كان يفتخر بكون أبويه غير مسلمين ويحس بنفسه غريباً عن المجتمع المسلم حاقداً عليه . وله دور كبير في توسيع شقة الخلاف بين النواب المسلمين وبين نواب الأقليات ، وكذلك في أحداث فتنة ٣١ من آذار وقد بحث عنه الجنود خلال محاصرتهم لمجلس المبعوثان فلم يجدوه ، ولما خرج إليهم وزير العدلية ناظم باشا ليهدئهم ظنوه أنه رئيس المجلس أحمد رضا ـ وكان بينهما شبه ـ فأجهزوا عليه وقتلوه .

أما رأس الأفعى عمانوئيل قراصو فقد استطاع أن ينفذ إلى جمعية الاتحاد والترقي وبدأ يسير سياسة الدولة إلى الوجهة التي يريدها هذا اليهودي الماسوني ومعه جاويد (دونمة) وطلعت باشا وهو الذي أشعل فتيل الفتنة في ٣١ من آذار .

ومن جهة أخرى كان هناك بين النواب العرب من يسعى نحو الاستقلال عن الدولة ، وبسبب عدم معرفتهم اللغة التركية كانوا في معزل عن المناقشات التي تدور في المجلس ، ومن هؤلاء عبد الحميد الزهراوي نائب الشام وشفيق المؤيد نائب بيروت اللذان أعدما مع عشرين آخرين بعد أن ثبتت إدانتهما بالخيانة العظمى والاتصال بدولة أجنبية .

وقبل أن ندخل في وقائع أحداث ٣١ من آذار أريد أن أسجل هنا ما قاله الفيلسوف والمفكر التركي رضا توفيق أمام المحكمة وهو يدلي بإفادته حول الحوادث المؤلمة :

« سيدي الحاكم ، عفا الله عنا ، إن سيئاتنا عظيمة جداً ، ففي الأيام التحضيرية لمأساة ٣١ من آذار أخبرت طلعت بك بضرورة تجنب هذه الكارثة وأوضحت له جسامة الجريمة في إهراق دماء الإخوة وذكرته بما ستجره هذه الأحداث من ردود فعل عنيفة ، فأجابني : ليس لنا الخيار ، إن الجمعية[1] بحاجة إلى مال ولا يتوفر هذا المال إلا في خزينة قصر يلدز حيث

(١) يقصد جمعية الاتحاد والترقي .

المجوهرات والأشياء الثمينة » .

هذه الكلمات من رجل شهد الأحداث بكل دقائقها تكفي لإلقاء الضوء على ما خفي وغاب عن المسرح ، مع ذلك سنسعى لإيضاح كل الجوانب بكامل الأدلة التي رأيناها رأي العين ولمسناها لمس اليد ، سأذكرها للتاريخ وللأجيال القادمة كي تتعظ بهذه الكارثة الأليمة وتتبين طريقها ، إن أحداث ٣١ من آذار امتحان عسكري عصيب بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية العثمانية ، ولكن من هم أساتذة هذا الامتحان ومن هم تلاميذه ؟ هذا مالم يسجله مؤرخو اليوم بأمانة وإخلاص ، ولا يعرف هذه المؤامرة إلا من كان تلميذاً في هذا الامتحان العصيب ، وقدّر الله أن أكون أحد هؤلاء التلاميذ .

يقول المؤرخ المرحوم أحمد رفيق بك في كتابه : منظمتان وكارثتان[١] « عندما نتذكر نشيد جيش الحركة بكلماته : (لقد أقسم جيشنا ، فاهتزت أرجاء الأرض ولقيت الأمة البشر والحبور وجاء دور الرخاء والسعادة) لابد أن نتذكر معه

---

(١) كتاب منظمتان وكارثتان ص ٥١ ـ ٥٢ .

الاتحـاديين من الأتراك والأرنـاؤوط والـزط والبلغـار والروم ، وكـذلـك أصوات المـدافع والرشـاشـات ودفع خليفـة عثماني خُلع دون أن يكون لـه أي ذنب في الأحـداث وخزينـة دولـة نهبهـا أدعيـاء الحريـة ، ولوحـات مثبتـة على صـدور ضبـاط وجنـود أبرياء علقوا على أعواد المشانق أمام جامع أيا صوفيا بين أشجار الكستناء في أيام نيسان الدافئة .

إنها أيـام حـالكـة السواد . ليت هـذا الجيش لم يقسم هـذه اليمين وليت هـذا الـوطن لم يفقـد ـ بسبب هـذا القسم ـ عـزتـه وشرفه ، إن الاتحاديين هم الذين سببوا كل هـذا الويل والشقـاء لأمتنا ووطننا » .

إنها قولة حق قـالهـا هـذا المؤرخ ، فجمعيـة الاتحـاد والترقي (أو إن شئت فقل حزب تركيا الفتاة) هي السبب والمسؤولـة عن سلسلة الكوارث والفظـائع والمظـالم ، أمـا الـذي هيـأ لهـذه الكوارث ووضع تفـاصيلهـا وموّلهـا فهي الصهيـونيـة ومنظماتهـا الماسونية .

فـإنكلترا تسعى لإلغـاء الخـلافـة وتحطيم الإمبراطـوريـة ،

وإيطاليا وضعت نصب عينها الاستيلاء على ليبيا وإنطاكيا ، أما الدونمة فوجهوا أنظارهم تجاه فلسطين ، وأما الاتحاديون فبهرتهم خزينة قصر يلدز فلابد من ثورة ولابد من أحداث ٣١ من آذار .

كنا نعتقد بأن جمعية الاتحاد والترقي هي التي أنقذتنا من الاستبداد ؛ لذلك انخرطنا في صفوفها وتطوعنا بين فدائييها لا نهاب الموت ولا نعبأ بالمهالك ، نطيع الأوامر دون تردد . لكن السياسة المنحرفة التي اتبعتها هذه الجمعية التي قضت على كل المساعي وكل التضحيات .

لقد أعلن الاتحاديون مع إعلانهم الحرية أن النظام الجديد يهدف إلى تنسيق عسكري وإداري في سبيل إزالة رواسب التخلف والركود وإعادة هيبة الدولة بعد أن أزالتها الثورات والحروب والفتن الداخلية فاعتقد الناس أن جمعية الاتحاد والترقي هي الأمل في هذا المستقبل المنشود .

لكن الذي حدث هو أن أعداء الأمة تغلغلوا في صفوف هذه الجمعية فاستطاعوا جرها إلى طريق معوج وسياسة

هوجاء ، فحدثت كارثة ٣١ من آذار التي جرت الاتحاديين ومعها الأمة إلى بلاء عظيم فقتلت الأمة على أيدي أبنائها .

فرؤوس هذه المؤامرة زينوا لرجال الجمعية طريق الوصول إلى كنز يستطيعون به أن ينهضوا بالبلاد ـ على زعمهم ـ والكنز هو ما جمعه السلطان عبد الحميد عبر السنين من استثمارات ومشاريع وهدايا وتحركات عن أجداده حيث كان يدخرها لأيام عصيبة يمكن أن تمر بها الدولة والأمة ، كان هذا مدفوناً تحت بركة ماء في مكان سري من حديقة القصر لا يدري به سوى عبد الحميد وزوجتيه ومصاحبيه جعفر آغا ونادر آغا[1] كما أن هناك أموالاً مودعة في بنوك فيينا تبلغ (٧٠٠,٠٠٠) سبعمائة ألف ليرة ذهبية .

إنه اقتراح جذاب ، فبعد اجتماعات عدة ومداولات بين رؤساء الجمعية اتخذ القرار التالي : « العمل على إحداث عصيان مسلح واغتنام الفرصة للاستيلاء على ثروة قصر يلدز والضغط على السلطان للحصول على موافقته بسحب المودعات في

---

(١) جاورت هذا الرجل فيما بعد في المسكن فأفشى إلي بهذا السر بعد الحوادث بعشرات السنين .

فيينا ، والإنفاق بعد ذلك على المصالح الضرورية في الجيش والإدارة المدنية للنهوض بالبلاد إلى مستوى رفيع ، ثم خلع السلطان عبد الحميد وتنصيب ولي العهد محمد رشاد (وهو الرجل المطاوع) وقد اعترض على هذا القرار بعض المتعقلين في الجمعية لكن اعتراضهم ذهب أدراج الرياح .

وبموجب الخطة المدبرة سيستعان بالمشايخ بجعلهم وسيلة لإيقاد نار التعصب ، فلابد أن يكون لدى الجنود (وهم مسلمون متمسكون بدينهم) رد فعل تجاه تصرف مخالف للدين .

ومن جهة أخرى استصدرت جمعية الاتحاد والترقي قانوناً يقضي بتطبيق التجنيد الإجباري لطلبة الطرق الصوفية بعد أن كانوا معفيين منه فحقد هذا الصنف من الناس على الدولة وتحفز للتعبير عن كوامنه . والأمر اللافت للنظر هنا هو لجوء رؤوس المؤامرة إلى خطة دنيئة وهي إشعال الشرارة الأولى على يد كتائب الرماة التي استخدموها للمرة الأولى في ثورة إعلان الدستور .

كانت هذه الكتائب حققت إعلان الدستور في إستانبول

واتخذت الكتيبة الثانية مقرها في سراي بورني[١] أما الكتيبة الثالثة والكتيبة الرابعة فعسكرتا في ثكنة طاش قشلة[٢] وذلك بغية الحفاظ على النظام الدستوري المفروض على السلطان . ومن أبرز ضباط هذه الكتائب البكباشي رمزي وهو رجل يهودي الأصل صهيوني الهدف .

أما الجنود فكانوا من الأتراك ومن بعض الأرناؤوط ولاشك أنهم بسبب تحقيقهم الثورة الدستورية يحسون بتفوقهم على أقرانهم من أفراد الكتائب الأخرى ولذلك كانت لهم أزياء خاصة عبارة عن خاكي ذي أربعة جيوب .

بدأت مأساة ٣١ من آذار في ثكنة طاش قشلة وانتهت هناك أما المؤلفات حول هذا الموضوع فلم تبحث عن هذه الثكنة ولا عن جنودها . إن عدد جنود القوات الخاصة في هذه الثكنة كان عشرة أمثال عدد قوات كتائب الرماة ، فأين كانوا أثناء التنفيذ وأي عمل قاموا به ؟ هذا مالم يكتبه أي كاتب في أي مؤلّف ....

---

(١) حي من أحياء إستانبول مشرف على البحر ومعناه بالعربية رأس القصر .

(٢) تقع هذه الثكنة في وسط إستانبول وهي الآن كلية الهندسة .

كيف بدأت مأساة ٣١ آذار

بمناسبة حضور السلطان العثماني لصلاة الجمعة في مسجد يلدز يقام كل أسبوع استعراض عظيم يشترك فيه كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية والبحرية والهندسة مع فرقها الموسيقية.

وفي الجمعة الثانية عشرة من عام ١٣٢٠ رومية وبعد أن حضرنا الاستعراض في يلدز عدنا إلى ثكنتنا طاش قشلة فوجدنا في كل مهجع شيخاً ذا لحية وعمامة ، رأيناهم يلقون دروس الوعظ بين الجنود الذين لم يشتركوا في الاستعراض وعلمنا فيا بعد أن قيادة القوات الخاصة هي التي طلبت منهم هذه الدروس الدينية . كان عدد المهاجع في هذه الثكنة يتجاوز الثلاثمائة . سألنا بعض هؤلاء المشايخ عما إذا تقاضوا أجراً لقاء هذا العمل فقالوا بأن موظفين حكوميين قدموا إلى مدارسهم فأعطوا لكل واحد منهم سلفة مقدارها ليرة ونصف وأنهم سيقومون بإلقاء هذه الدروس بالتناوب في ثكنتي طاش قشلة وبك أوغلي .

إن التساؤل هنا : ألم يعلم القادة المسؤولون في هذه الثكنة بهذا الأمر ، وهل يعقل أن كل هؤلاء المشايخ يدخلون ويخرجون دون علم من قادة هذه الثكنة . إن الوضع إن دلّ على شيء فإنما يدل على الدقة في تخطيط هذه المؤامرة وتنفيذها .

إن عدد جنود القوات الخاصة يبلغ عشرة أمثال جنود كتائب الرماة ، كانوا يشكلون الفرقة الثانية لهذه القوات بكتيبتها السابعة والثامنة وبالإضافة إلى الفرق الموسيقية وفرق الهندسة والسجن العسكري .

فمخططو المؤامرة كانوا يعلمون اسم كل فرقة وكل كتيبة على وجه الدقة والتحديد ، ودليلنا على ذلك أن هذه الفرق دعيت يوم ٣١ من آذار إلى اجتماع عام وكان النداء يتضمن اسم كل فرقة مع ذكر أرقام كتائبها وطوابيرها . ولما اجتمعت الفرق في ساحة الثكنة دقت موسيقا الاستعداد والتحية لجنرال (باشا) لم نره من قبل ولم نعرفه ، جاء ومعه عدد من الضباط ، وبعد أداء مراسم التحية خطب هذا الباشا قائلاً بأنه سيتلو علينا

إرادة سلطانية وبدأ يتلو أمراً مطبوعاً بأحرف كبيرة مذيلاً بخاتم السلطان كنت قريباً من مكان وقوف هذا الباشا سمعت ما قاله الباشا حرفاً بحرف . وإليكم خلاصة هذا الأمر :

« لقد تراءى في أجواء بلاد الروم سحب سودٌ تهدد مقدرات البلاد ، هذه السحب ليست دلائل خير . إنكم ياأبنائي الجنود حراس هذا الوطن . من سواكم يدفع الكيد عن الإمبراطورية التي بناها أجدادنا قبل ستمئة عام وروتها الأجيال بدمائها . ولكي تكون رؤيتكم للعدو واضحة ، أطلب منكم أن تلبسوا قبعة جديدة ، لقد أصدر شيخ الإسلام فتوى بجواز لبس هذه القبعة فمن الواجب عليكم إطاعة أولي الأمر .. » ثم أخرج الباشا من صندوق كان محمولاً ، قبعة تشبه الأنورية ، وبعد أن نزع طربوشه لبس القبعة فدقت موسيقا التحية ومرت الكتائب أمامه ، وبعد الانتهاء من الاستعراض غادر الباشا ومعيته مكان العرض ، كانت الورقة التي تلا محتواها ورقة رسمية مذيلة بتوقيع خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد .

لم يدر بخلد أحد أن هذا الباشا ومن معه أناس مزيفون

لبسوا لباس القادة وهيؤوا لهذه المؤامرة وحاكوا خيوطها ، لقد عرفت من بين هؤلاء بهاء الدين شاكر ومدحت شكري وعرناجي الذين التقيت بهم في جمعية الاتحاد والترقي ، مع ذلك فالذي تلا الأمر هو باشا ، وهل يفكر أحد في أن هذا الأمر من صنع المتآمرين لإحداث الفتنة ؟

إن إلباس قبعة لرجل مسلم في ذلك الزمان كان يعني إلقاء شعلة نار في برميل بارود . فمن المؤكد أن تحدث مثل هذه القبعة ردة فعل لدى العسكريين . لقد علمنا فيما بعد أن هذه الهيئة المزيفة ذهبت إلى ثكنة المدفعية في بك أوغلي وفعلت مثلما فعلت في ثكنة طاش قشلة ثم غابت عن الوجود ولكي يضمن المتآمرون استمرار المؤامرة في الوصول إلى الهدف المنشود بثوا بين الجنود أناساً جواسيس لبسوا لباس ضباط صف (رقباء وعرفاء) فما إن غادرت الهيئة العسكرية المزيفة الثكنة حتى دب النشاط فيهم ، فقام عمر ناجي وصعد عربة عسكرية وبدأ يخاطب الجنود : أيها الإخوة الجنود ، اقتربوا مني ، لي بعض كلمات أقولها لكم ، ألسنا مسلمين ؟ ألم يرسلنا آباؤنا وأمهاتنا لخدمة هذا الدين المبين ؟ أتدرون ما معنى لبس هذه القبعة في

الإسـلام ؟ معنـاه أن نخلـع عهـد الإسـلام من رقـابنـا ونصير كفاراً ، فماذا تنتظرون ؟ لقد ضحّى أباؤنا وأجدادنـا بـأرواحهم في هـذا السبيـل ، إن الإسـلام ينتزع منكم ، ثم خـاطب كتيبـة الرماة قائلاً : أقول لكم أيها الأبطال : أجئتم بـالحريـة كي نصبح كفاراً ؟ ألم تكن مهماتكم حماية الحرية وحماية الإسلام الـذي هو ديننـا ؟ وكان بقيـة الجواسيس المنتشرين بين الجنود يطـالبون بنتظيم مسيرة إلى مجلس المبعـوثـان ، فعـلا الضجيـج وكثر الصراخ ، ودقت الموسيقـا أن حي على السلاح ، ولما أراد بعض الضبـاط الوقوف في وجوههم اعتقلوا جميعـاً ووضعـوا في مهجـع واحد تحت رحمة الحراب .

حدث نفس الأمر بالنسبة لثكنة المـدفعيـة في بـك أوغلي ، وعجّت ساحـة الثكنـة بـالجنود ، كيف يخطر بـالبـال أن يقوم نظـام يسوق أبنـاءه إلى الموت في مؤامرة حيكت خيوطهـا من قبل أعداء الوطن ؟

في ذلـك اليـوم ، الثـلاثـاء ٣١ من آذار مشت الفرقـة إلى طريق الجهاد . ولحقتها كتيبتا الرماة الثالثة والرابعة ، وكتيبتا

القوات الخاصة السابعة والثامنة وعندما وصل الموكب إلى دولة نعجة قام بعض المحرضين بإطلاق النار من مسدساتهم فاتبعهم الجنود بإطلاق نيران رشاشاتهم .

ولدى وصولنا إلى طونجانه انضم إلينا الجنود الموجودون في هذا المركز كما انضم عدد كبير من المدنيين وسار الموكب نحو جسر غلطة وعند اقترابنا من الجسر كان الجيش القادم من مركز المدفعية في بك أوغلي قد لحقنا حتى وصلنا إلى يني جامع فاستقبلنا جمع كثيف من طلاب المعاهد الدينية بعمائمهم البيض وهم يهتفون أترتدّون عن دين الإسلام ؟ أتلبسون القبعات وتصبحون كفاراً ؟ نريد تحكيم الشريعة ، نريد تحكيم الشريعة !!! وبعد أن انضم إلينا هؤلاء المشايخ أصبح المشهد خليطاً عظيماً من العسكريين والمدنيين والمشايخ وكأنه يوم الحشر العظيم . مشى هذا السيل الجارف في سمفونية عجيبة مركبة من أناشيد وطنية وتكبيرات دينية متجهاً نحو ساحة أيا صوفيا ولما وصلنا إليها رأينا الناس قد ملؤوا الساحة حتى تسلقوا أشجار الكستناء الباسقة حتى لكأنهم جراد منتشر ، ثم حاصر هذا السيل من البشر مبنى مجلس المبعوثان وسط

صيحات المطالبين بالشريعة وأصوات الأذان من فوق الحافلات التي تجرها الخيول . دون أن يدري أحد أية شريعة يطالبون بها وممن يطالبون بهذه الشريعة ، ثم سمعنا أصوات بعض الطلقات النارية وانتشر الخبر أن أحد الذين يريدون جعل المسلمين كفاراً قد قُتل وتبين فيما بعد أنهم قتلوا شكيب أرسلان بك نائب اللاذقية وأرادوا سحبه بالشوارع وتمزيقه ظناً منهم أنه حسين حامد بك أحد محرري جريدة الطنين وهو من يهود سلانيك (دونمة) . ولما علموا خطأهم تركوه . ولما رأى ناظم باشا (وزير العدل) فداحة الخطب ، تملكته الجرأة فظهر من إحدى النوافذ وخاطب المتجمهرين قائلاً : أبنائي الجنود إنكم لمخدعون ، مخطئون في ظنكم ، الشريعة قائمة لم يمسها أحد بسوء ، وما كاد يتم كلامه حتى صرخ أحد الناس : اقتلوه إنه عدو الشريعة الأول ، وفي هذه الأثناء أصدر أحد الضباط إيعازاً إلى ضابط صف اسمه حمدي جاويش عندئذ لعلع الرصاص فأصيب ناظم باشا وقتل ظناً من الناس أنه أحمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثان (ما سوني) فكان ثاني قتيل يقتل خطأ . ثم أمر حمدي جاويش الجنود بالتجمع فسار العسكر مع

المشايخ نحو الباب العالي .

وأريد أن أسجل هنا بأن ما كتب حتى الآن عن اشتراك مفارز وزارة الحربية واشتراك المفارز الموجودة في ثكنة السليمية[١] ولجوء بعض السفن الحربية لهذا السبب إلى ضرب هذه الثكنة بالمدفعية ، هو محض خيال ، إذ لم تدق أبواق النفير حتى رفعت رايات الاستسلام البيض على أبراج هذه الثكنة فلم تشترك في العصيان أبداً .

وعند مرور هذا الموكب العاصي من الباب العالي خرَّب المندسون مطابع بعض الصحف ونهبوها ، ولم يشترك معهم أي جندي في هذه الأعمال .

وفي الوقت الذي جرت فيه هذه الحوادث بساحة آياصوفيا حدثت فتنة ثالثة في سلاح البحرية .

لم يتبع المحرضون نغم الشريعة هنا بل اتبعوا سبيلاً آخر ، ادعوا بأن قائد البَارجة (إعصار التوفيق) البكباشي علي قيولي

(١) هذه الثكنة كائنة في الجانب الآسيوي من إستانبول ، ومازالت تستعمل كثكنة عسكرية ومقراً لقيادة الجيش الأول التركي . المترجم

حاول تدمير مقر يلدز لقتل الخليفة ، كانت هذه التهمة محض افتراء ، فقبضوا عليه ووضعوه في قفص داخل عربة نقل واقتادوه إلى قصر يلدز وهم ينشدون الأناشيد الوطنية ويطلقون النار في الهواء كما فعلت كتائب الرماة . وبين هتاف بحياة السلطان وموت الخونة وصلوا إلى مقر يلدز فاصطفوا أمام دائرة الارتباط شاكي السلاح وهم في وضع التحية هاتفين للسلطان . ولما أرسل السلطان بعض مرافقيه ليتنبؤوا الأمر ، أجابوهم : إننا ندين بالولاء لمولانا جلالة السلطان جئنا بخائن للوطن هو الآن مكبل في العربة ، إنه قائد البارجة إعصار التوفيق كان يهم بتدمير قصر يلدز ، قبضنا عليه وهو الآن تحت حراستنا ننتظر أوامر جلالة السلطان . وعندما عاد المرافقون إلى القصر ، جاء المتآمرون بشيخ[1] وطلبوا منه أن يدعو بالخير والسلامة فلما أجابهم بأنه لا يعرف مثل هذا الدعاء قاموا إليه فمزقوا عمامته وجبته وطردوه . وجاؤوا بإمام الطابور الأول التابع للكتيبة السابعة في يلدز الشيخ مراد أفندي وطلبوا منه الدعاء بالخير والسلامة فلما رأى أنه لا

---

(١) هو الشيخ صادق أفندي .

منجى منهم دعا للدولة العثمانية ولجيش السلطـان ، فكان هـذا الدعاء سبباً لإعدامه شنقاً فيما بعد .

ظل المتآمرون يصرخون ويهتفون بحياة السلطان حتى ظهر السلطان من نافذة دائرة الارتباط وسـألهم عن مطلبهم . تقـدم قرب النافذة ثلاثة منهم وبعـد أداء التحيـة قـالوا : مولانـا إننـا نطالب بالشريعة ، إن الرجل الذي أتينـا بـه أراد تـدمير قصركم بمدافع بارجته وكذلك إحراق إستانبول ، قبضنا على هذا الخائن وجئنا به إليكم . والقرار هو قرار جلالتكم ، نطالب بإعدامه .

وعندما طلب السلطان عبد الحميـد رؤيـة علي قيولي جيء به فمشى إليه خـائر القوى حتى وقف أمـامـه وبعـد أداء التحيـة قال بصوت مرتعش : عبدكم البكباشي علي قيولي قائد البارجـة إعصار التوفيق ، أمـد الله في عمر جلالـة سلطـاننـا . إن شكوى هـؤلاء الجنـود نـابـع من جهلهم وعن تحريض مقصـود . وكان صوته يخفت من شدة خوفه حتى صـار حشرجـة غير مسموعـة . عنـدئـذ أمر السلطـان أن يـأخـذوه إلى وزارة البحريـة لاستنطاقه ، ثم أغلقت النـافـذة . تحلق المتـآمرون حول رجـال

القصر الذين جاؤوا بهذا الأمر ولما علموا به صرخ واحد بينهم إلى أين تأخذونه ، سنعاقبه هنا وبدأ يضربه بيديه ويركله برجليه قائلاً : إنه خائن الشريعة ، خائن الدين وخائن الوطن ، ولما رأى رجال القصر منه ذلك حالوا بينهما وتأبطوا ذراعيه محاولين إنقاذه من بين يديه فجن جنون العصاة وهجموا عليه ، وقام رجل ذو شاربين مفتولين وقامة طويلة اسمه الرقيب سليمان الكرزي وطعن بحربة بارودته بطن علي قيولي ثم صدره وجوانبه فصدرت من علي قيولي صرخة تمزق الأكباد ، ووقع على الأرض مضرجاً بدمائه ، وحيال هذا الوضع لم يجد رجال القصر بدأ من النجاة بجلودهم والالتجاء إلى القصر .

لم يبق العصاة في جسم هذا الرجل مكاناً إلا طعنوه بحرابهم ثم ربطوه من رجليه وعلقوه على شجرة في الشارع العام وانصرفوا .

سمعنا بمقتل علي قيولي بهذا الشكل المفجع لدى عودتنا إلى ثكنة طاش قشلة بعد أن كنا في ساحة آياصوفيا . إذن فالذين قتلوا هم ثلاثة أشخاص : شكيب أرسلان ، وناظم باشا ، وعلي

قيولي . وقد وجد الضباط المعتقلون في المهجع فرصة فهربوا ، فلم يبق في الثكنة نظام أو طاعة ، وفي اليوم التالي عاد كل شيء كما كان وكأن شيئاً لم يكن . وفي يوم الجمعة ٣ من نيسان جرى الاستعراض المعتاد لكن الذي لفت النظر فيه هو عدم حضور الضباط الكبار هذا الاستعراض .

وفي هذه الأثناء سرت شائعة في الثكنة تقول إن الجيش الثالث في سلانيك بعث بطوابير عسكرية تسمى بجيش الحركة وإن هذا الجيش سيقوم بمناورات عسكرية في إستانبول مع أن المياه عادت في إستانبول إلى مجاريها .

وفي يوم الجمعة ١٠ من نيسان سنة ١٣٢٥ أخذنا الجنود من ثكنة طاش قشلة لإجراء العرض المعتاد ، فكان هذا العرض الذي دام ثلاثاً وثلاثين سنة .

لم يجر العرض المعتاد ، بل أبلغنا رجال القصر بأن جلالة السلطان يريد أن يتكلم إلينا ببعض الأمور . ذهبت مع من ذهب من الضباط ووقفنا أمامه وأدينا التحية ، كان بجانبه قائد القوات الخاصة أحمد مختار باشا ووزير الجيش رضا باشا ،

خاطبنا عبد الحميد قائلاً ما معناه : بلغوا سلامي إلى أبنائي الجنود الموجودين هنا والباقين في الثكنات وقولوا لهم : إن عساكر من الجيش الثالث التي تسمى الحركة قد وصلت إلى الستيفانوس (بشيل كوى)[1] . إنهم مثلكم أتراك مسلمون . إن ما قرىء في ثكنة طاش قشلة لم يصدر عني مطلقاً لقد دبره بعض الأعداء ، وتبين من التحقيق أنه تدبير سياسي مقصود . لم أصدر مثل هذا الأمر تجاه أمتي أبداً . لقد حرص الأعداء بهذه الأعمال على تحقيق أهدافهم الخبيثة ، فأطلب منهم ألا يصدقوا مثل هذا التحريض وليبقوا في ثكناتهم ، ولا يلجؤوا إلى السلاح كما لجؤوا إليه في ٣١ من آذار وقد أمرت القادة بإجراء ما يلزم ، (وأشار إلى القادة الموجودين بجانبه) .

لو أمر السلطان عبد الحميد القوات الخاصة المعسكرة في إستانبول بمهاجمة جيش الحركة والدفاع عن المدينة لكانت فاجعة ٣١ من آذار ضربة قاضية على الجيش العثماني بأكمله .

لكن عبد الحميد لم يفعل شيئاً من هذا القبيل واستسلم

(١) ضاحية من ضواحي إستانبول فيها حالياً المطار المدني على ضفاف بحر مرمرة .

للقدر . أبلغنا جنودنا أمر السلطان ، ولم تجر المراسيم المعتادة فجاء السلطان إلى المسجد ، وبعد قليل أبلغنا مرافقوه عدم الانتظار والعودة إلى الثكنات .

مرت أزمة ٣١ من آذار ومضى أسبوع واحد لم يسجل خلاله أي حادث جدير بالذكر .

الأمر اللافت للنظر هو غياب كل ضباط كتائب الرماة عن الثكنة ، كان المتآمرون قد أبعدوهم جميعاً وهذا من الأدلة الدامغة على أن هذه الحوادث من صنع المتآمرين بدقة وإحكام .

لم يبق من الضباط الكبار في الثكنة سوى ضابط واحد هو قائد الكتيبة السابعة الأمير لاي إسماعيل حقي . وقد دق نفير الاجتماع فاجتمع الضباط والجنود في ساحة الثكنة فخاطبنا هذا القائد قائلاً : أيها الجنود ، هناك شائعات تسري ، إنها محض أكاذيب يطلقها من لهم أهداف وغايات سياسية معينة . والحوادث التي جرت في ٣١ من آذار هي ثمرة الأهداف والغايات . سيعود إليكم من غاب من ضباطكم . إن الطاعة في

الجندية هي الأساس أبلغكم بأمر صاحب جلالة المقام الرفيع . إن ما جرى في ٣١ من آذار لا يليق بالشرف العسكري وليس له مكان في ديننا . أدعوكم لأن تقسموا أمامي بألا تلجؤوا إلى أي حركة لأي سبب من الأسباب دون أن تتلقوا أمراً ، أتقسمون ؟ فهتف الجميع نقسم بالله العظيم على ذلك .

كان الطابور الأول من ثكنة طاش قشلة تشغله كتائب الرماة والاستحكام أما الطابور الثاني فلجنود القوات الخاصة ، أما حراسة الأبواب النظامية ومخزن الأسلحة فيتناوب فيها جنود القوات الخاصة وليس للرماة أية مناوبة على حراسة الثكنة .

وفي ليلة العاشر من نيسان أحس الرماة بوجود شيء ما يحوم حولهم فعمدوا إلى حراسة المخزن فجردوهم من أسلحتهم وكسروا أقفال المخزن ونقلوا العتاد كله إلى مهاجعهم ، وعلم القائد بالخبر فاستنفر القوات لكن الرماة الذين سدوا جميع المنافذ هددوهم بإطلاق النار إن هم اقتربوا منهم ، وفي هذه الأثناء جاء ضباط الصف المناوبون بخبر جديد مفاده : أن

عناصر أجنبية يلبسون قبعات بيضاء ويرتدون أزياء غريبة يحفرون مرابض لهم تجاه الثكنة من جهة مستودع المحروقات .

فلما علم القائد بالنبأ أمر بالتريث حتى يصبح الصباح فيظهر الوضع جلياً . ولم تمض ساعة على هذا الوضع حتى لعلعت أصوات المدافع الرشاشة قرب الباب الرئيسي .

أغار جيش الحركة على الثكنة ففتح الرماة نيران أسلحتهم لصد هذا الجيش ، فلما سمعوا أصوات الرصاص هرعوا إلى خارج الثكنة دون أن يعلموا بما جرى فقابلهم جيش الحركة بالرشاشات المتمركزة في مقبرة الأرمن فأبادهم عن بكرة أبيهم .

وخلال الاشتباكات التي بدأت قبل الفجر من يوم السبت ١١ من نيسان واستمرت حتى الظهر دمرت قنابل المدفعية الباب الرئيسي وجزءاً من الطابق الثاني وبعد قليل تهدمت المهاجع على رؤوس جنود الاستحكام فماتوا جميعاً تحت الأنقاض .

استمرت الاشتباكات حتى عصر ذلك اليوم فكانت مدافع بك أوغلي تتراشق النيران مع مدافع الحربية ، وفي هذه الأثناء حاول قائد الكتيبة السابعة إسماعيل حقي ثني الرماة عن

موقفهم فلم يفلح فأمرنا أن نلف غطاءً أبيض بعصاً ونرفع راية الاستسلام على نافذة من نوافذ الطابق العلوي لعلهم يوقفون القصف وتهدأ الحالة . فنفذنا ما أمر وفعلاً توقفت طلقات الأسلحة ، فكتب القائد كتاباً أرسله مع أحد الضباط إلى القوات المهاجمة ، وكانت الاشتباكات متوقفة تماماً .

ومن الباب النظامي المتهدم ظهر البكباشي أنور بك (بطل الحرية أو أنور باشا فيما بعد) وبيده مسدس ومعه عشرة من رفاقه ومن ورائهم جنود ذوو ألبسة غريبة تبين فيما بعد أنهم من عصابات البلغار ، كان مع أنور رجل طويل القامة ذو لحية صفراء اسمه ساندانيسكي (قائد الثورة المكدونية) . وأول عمل قاموا به هو تجريد من بقي حياً من كتائب الرماة من سلاحهم وقتلهم جميعاً بحراب أسلحتهم . أما القائد إسماعيل حقي فتقدم من البكباشي أنور قائلاً : أي بني بارك الله بكم ، لم أستطع أن أثني الرماة عما فعلوا لقد أقسموا بالأمس لكنهم نقضوا أيمانهم فكسروا باب مخزن الأسلحة وسببوا هذه الحادثة . أما أنور بك فلم يجبه بل مشى إليه وأشبعه ركلاً وضرباً ثم نتف لحيته البيضاء فانفجر القائد غاضباً وصرخ

والدماء تكاد تتفجر من عينيه : أيها الوقح ، لقد أثبت بعملك هذا سوء أدبك وخلقك ، وبصق في وجهه ثم أردف إنك لم تقم للشرف العسكري وزناً أسفي عليك وأنت تحمل رتبة ضابط تركي لم أعرف أنك أحط من أي جندي عادي ، إن فعلك هذا لا يفعله حتى العدو الذي لا يمس من استسلم بسوء . إنني أشك في عقيدتك والدماء التي تجري في عروقك لو لم تكن دنيئاً لما أهنت من هو من قومك أمام هؤلاء (وأشار بيده إلى البلغار) . ثم وقع مغشياً عليه .

لما رأى أنور بك هذا الجواب الذي استحقه من القائد التركي أمر عصابات البلغار أن يقيدوا هذا الضابط الشهم فقيدوه فأطلق هو وثلاثة من رفاقه النار عليه فقتلوه ثم دار بوجهه إلى ساندانيسكي وتمتم : أما كان مستحقاً لهذا الجزاء !

جُرِّد بقية الجنود من السلاح ووضعوا في مهجع نادوا عليهم واحداً بعد واحد فقتلوهم جميعاً ، فامتلأت ساحة الثكنة بالأشلاء وكأنها مسلخ المدينة ، ثم أمروا القلة القليلة ـ فكنت أنا منهم ـ بدفنهم . فحفرنا لهم حفراً في مقبرة الأرمن فدفنا

زملاءنا بأيدينا تحت تهديد السلاح ، هذه المقبرة الجماعية هي الوثيقة الأصلية التي تثبت بشاعة وفظاعة جريمة ٣١ من آذار فليذهب المؤرخون ولينظروا بشيء من الإنصاف والحياد .

إن الفاجعة التي ألمت بنا ورأيناها بأم أعيننا في ثكنة طاش قشلة مخيفة مرعبة لم تشهد مثلها محاكم التفتيش ، لقد أذاق أبطال الحرية الجيش التركي صنوفاً من التقتيل والتعذيب لم تفعله الوحوش . لقد مشى بطل الحرية أنور بك أمام أعدائه الذين يريدون إزالة أمته من الوجود فقتل أبناء جلدته وطعنهم بأيدي الأعداء ، لابد أن التاريخ سيحكم عليه يوماً ، وإن لم يحاكمه أولياء الجنود الذين أرسلوا أصلاً للدفاع عن هذا الوطن ، فانتظروا رجوعهم إلى بيوتهم سنين طويلة دون جدوى ، إن ضحايا هذه الكارثة لم يدفنوا حتى في مدافن المسلمين بل غُيبوا في التراب في مقبرة آغوب الأرمني .

انتهت المذبحة على النحو المذكور ، قام بعد ذلك رئيس عصابات البلغار ساندانيسكي ورجاله برفقته أنور بك بالإغارة على قصر يلدز ، فقدم أنور بك قصر الإمبراطورية العثمانية

بتاريخها العريق نهباً لعصابات العدو ، ولقد كان تخطيطهم يقضي بإحداث فتنة ٣١ من آذار وإسقاط عبد الحميد والحصول على الخزينة وعندما لم يجدوا الخزينة قبضوا على المصاحب الأول جوهر آغا واستعملوا معه أبشع أنواع التعذيب فصرخ في وجههم بأنه لن يخون ولي نعمته فوضعوا حبل المشنقة في عنقه وأعدموه . وبادروا إلى المصاحب الثاني نادر آغا وعذبوه مثل سلفه وهددوه بالإعدام فلم يستطع الصمود فدلهم على مكان الخزينة وأنقذ روحه .

لقد جاورت نادر آغا فيما بعد فأفشى إلي بهذا السر في معرض حديثه عن الأحداث التي تعرضنا لها وذقنا منها الويلات .

لم تكن للسلطان عبد الحميد أية علاقة بأحداث ٣١ من آذار وبالرغم من حسن النية التي أظهرها والحياد الذي وقف فيه ، فإن الأحداث تطورت ضده وقد أظهر أنور بك (صهر العائلة المالكة ونائب القائد العام فيما بعد) مهارته في نهب خزينة القصر أمام عيني السلطان الذي جمع المال عبر السنين الطويلة

لينفقه على أمته في الأيام العصيبة ، وذلك على أيدي عصابات الروم والبلغار ، مع ذلك لم يكن ذلك المال بالمقدار الذي حلمت به جمعية الاتحاد والترقي . كما قام أنور بك في قصر يلدز بمذبحة شبيهة بمذبحة طاش قشلة إذ أباد مفرزة تابعة لشوكت باشا عن بكرة أبيها . كما تعرض بالإهانة للفريق ممدوح باشا القائد التركي المرموق الذي خدم الجيش العثماني مدة سبعة وأربعين عاماً ثم نزع سيفه وأرسله إلى قائد جيش الحركة محمود شوكت باشا ، فلما رأى الباشا هذا التصرف غير اللائق اعتذر منه وأعاد لممدوح باشا سيفه .

أعلنت الأحكام العرفية في إستانبول ومنع التجول بعد أذان المغرب وتوقفت المواصلات بين شطري المدينة .

وفي اليوم التالي أُخذت مخفوراً مع ثلاثة من زملائي إلى سجن باكير آغا فوجدنا هناك كثيراً من الناس يقدمون إلى المحاكمة فمن ثبت تواجده في ساحة آياصوفيا يوم العصيان أعدم شنقاً أو رمياً بالرصاص . وقد كنا مطمئنين إلى أننا ضباط غير مسلمين ، من الفرقة الموسيقية لكن الحكم الذي صدر بشأننا لم

يراع كوننا غير مذنبين فنزعت منا الرتب العسكرية وأخذنا إلى منطقة نائية للعمل في مخيم للأشغال الشاقة مدة ستة أشهر .

والآن نقول : لحساب من أحدثت مأساة ٣١ من آذار ؟ من هم وراء هذه الفتنة ؟ لقد تبين من التحريات الجارية بعد إخماد الفتنة أنه ضبط في بيت سعيد باشا القبرصي ـ المعروف بتبعيته للإنكليز ـ النسخ الأصلية لكل المقالات الرئيسية التي نشرتها جريدة البركان السرية ، وقد سلمت الوثائق إلى رئاسة المحكمة العرفية لكن أحداً لم ينبس ببنت شفة في هذا الموضوع . لقد ثبت بما لا يقبل الشك أن وكالة الاستخبارات الإنكليزية هي التي كانت وراء هذه المؤامرة .

* * *

خلع السلطان عبد الحميد

بعد المؤامرة التي نفذت في ثكنة طاش قشلة ونهب قصر يلدز من قبل عصابات البلغار بمعرفة أنور باشا أمام عيني السلطان اجتمع أركان جيش الحركة بأعضاء المجلس الملكي الذي شكله مجلس المبعوثان وقرروا خلع السلطان عبد الحميد بعد استصدار فتوى من شيخ الإسلام .

وفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩ اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرر بالاتفاق خلع السلطان عبد الحميد .

كتب مسودة الفتوى الشيخ النائب حمدي أفندي المالي لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعي للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديل عليها ، وأيده في التعديل عدد من أنصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلعه .

وإليكم نص الفتوى ذات الوجهين الموقعة من قبل شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع :

« إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية ، وجمع الكتب المذكورة وإحراقها والتبذير والإسراف من بيت المال وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية ، وبقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيه ، ثم عاد فحنث وأصر على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلمين من كافة الأقطار الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً ، فلوحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم . الجواب : نعم . يجب .

التوقيع

كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين

عفا الله عنه

قرئت هـذه الفتـوى العجيبــة في الاجتماع المشترك للمجلس الملّي فصرخ النواب الاتحاديون نريد خلعه ، نريـد خلعـه ، في هذه الأثناء قام سعيد باشا الصغير ـ الذي رباه عبد الحميـد وهو صغير فخـانـه بعـد مــا كبر ـ وهـو على كرسي رئـاســة المجلس وقال : أيها السادة ، هل توافقون على هذه الفتوى الشرعية التي تقضي بخلع السلطان عبد الحميد الثاني من الخلافـة والسلطنـة ؟ ولمـا كثرت الهمهمات بينهم طلب من الموافقين الوقوف ، فـوافـق المجلس على الخلع .

بعد استقالة حسين حلمة باشا من رئاسـة الوزراء في ٣١ من آذار كان توفيق باشا قد عين خلفاً لـه ، وفي جلسـة المجلس الملي دعي إلى حضـور الاجتماع وطلب منــه تبليـغ قرار الخلـع إلى الخليفة لكنه كان مدركاً للأمور إدراك المجرب الحكيم فاستطـاع التخلص من هذه المهمـة الكريهـة قـائلاً : إن قرار النواب يجب أن يبلغـه النواب أنفسهم فـانتخب الاتحـاديون وفـداً لن ينسـاه المسلمـون ولن ينسـاه التـاريـخ أبـداً ، إنـه وفـد ينـدى لـذكره الجبين .

لقد ضم الوفد أرام أفندي الأرمني ، والفريق البحري عارف حكمت باشا ، وعمانوئيل قره‌صو اليهودي نائب سلانيك والعدو الأول للإسلام ومدبر المكائد للقضاء على الخلافة الإسلامية ، وأسعد طوبطاني الأرناؤوطي الذي خان النعمة وخان الوطن .

كان المفروض أن يقوم بتبليغ قرار خلع سلطان عثماني مسلم خدم الدولة والأمة أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً ، وفد مسلم ، لقد لطخ الاتحاديون بفعلهم هذا ليس تاريخ عبد الحميد فحسب بل التاريخ العثماني بأكمله بالعار .

قدم هذا الوفد إلى السلطان عبد الحميد فوجدوه واقفاً على قدميه هادئاً متين الأعصاب . فلما قرأ عارف حكمت باشا الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام ضياء الدين أفندي ، أجاب السلطان عبد الحميد جواب المؤمن الواثق بربه ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ . عندئذ تقدم أسعد طوبطاني الأرناؤوطي قائلاً : لقد عزلتكم الأمة ، فغضب عبد الحميد وقال : تقصد أن

الأمة خلعتني ، لا بأس ، ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي[١] إلى مقام الخلافة .

وبعد أن أزيح السلطان عن سدة الخلافة والسلطنة أُرسل في يوم ٢٨ من نيسان ١٩٠٩ مع ثلاثة من نسائه ، وأولاده عبد الرحيم ومحمد وعابد وبناته شادية وعائشة ورافعة ، وبعض الخدم والمرافقين إلى سلانيك ووضع في قصر الاثبتي الصيفي تحت حراسة فدائيي الاتحاد والترقي ولما اندلعت حرب البلقان جرى نقله مع حاشيته إلى قصر بكلربكي في إستانبول بعد توسط صديقه القديم الإمبراطور الألماني ويلهلم الثاني وتوفي في هذا القصر فجرى لجنازته احتفال مهيب ودفن في مقبرة السلطان محمود بإستانبول رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .

* * *

---

(١) قصد بذلك اليهودي عمانوئيل قره‌صوا .

الفهرس